كتاب لطائف الكلم

obeikandl.com

obeikandl.com

العمل بالقرآن

قال بعض السلف : أنزل الله القرآن ليعمل به ، فاتخذوا تلاوته عملا [١] .

الأخذ بالكتاب والسنة

قال أبو سليمان الدارانى : تعرض علىّ النكتة من نكت القوم ،فلا أقبلها إلا بشاهدى عدل : الكتاب والسنة .

وقال الجنيد : مذهبنا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث ، لا يقتدى به فى طريقنا [٢] .

الصلاة المقبولة

قال بعض السلف : الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدى إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة أو دميمة أو قبيحة ، حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة ،فكيف بالصلاة التى يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى ؟ والله طيب لا يقبل إلا طيبا ،وليس من العمل الطيب : صلاة لا روح فيها ، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه [٣] .

السعادة فى تحقيق العبودية

كان شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول :من أراد السعادة الأبدية ، فليلزم عتبة العبودية [٤] .

---

(١) الداء والدواء (٢٧٢) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٥٢٦) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٣١) .

obeikandl.com

إحسان الله عز وجل إلى الخلق

إن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ، وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى ، وهو يُمِدُّه بنعمه ، ويعامله بألطافه ، ويُسْبِل عليه ستره [١] .

إن الحبيب يسامح بما لا يسامح به سواه ؛ لأن المحبة أكبر شفعائه وإذا هفا [٢] هفوة ملكه [٣] عاقبتها ، بأن جعلها سببا لرفعته وعلو درجته ، فيجعل تلك الهفوة سببًا لتوبة نصوح وذل خاص ، وانكسار بين يديه ، وأعمال صالحة تزيد فى قربه منه أضعاف ما كان عليه قبل الهفوة ، فتكون تلك الهفوة أنفع له مـن حسنات كثيرة . وهذا من علامات اعتناء الله بالعبد ، وكونه من أحبابه وحزبه .

وقد استشهد الشيخ بقصة سليمان عليه السلام حين ألهته الخيل عن صلاة العصر ، فأخذته الغضبة لله والحمية ، فحملته على أن مسح عراقيبها وأعناقها بالسيف ، وأتلف مالاً شغله عن الله فى الله ، فعوضه الله منه : أن حمله على متن الريح فملكه الله تعالى عاقبة هذه الهفوة وجعلها سببًا لنيل تلك المنزلة الرفيعة ،واستشهد بقصة موسى ﷺ حين ألقى الألواح وفيها كلام الله عن رأسه وكسرها ، وجر بلحية أخيه وهو نبى مثله ولم يعاتبه الله على ذلك كما عتب على آدم عليه السلام فى أكل لقمة من الشجرة ، وعلى نوح فى ابنه حين سأل ربه أن ينجيه ،وعلى داود فى شأن امرأة أوريا ، وعلى يونس فى شأن المغاضبة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : وكذلك لطم موسى عين ملك الموت ففقأها ولم يعتب عليه ربه ، وفى ليلة الإسراء عاتب ربه فى النبى ﷺ إذ رفعه فوقه ورفع صوته بذلك ، ولم يعتبه الله على ذلك ، قال: لأن موسى عليه السلام قام تلك المقامات العظيمة التى أوجبت له هذا الدلال ؛ فإنه قاوم فرعون ـ أكبر أعداء الله تعالى ـ وتصدى له ولقومه ، وعالج بنى إسرائيل أشد المعالجة ، وجاهد فى الله أعداء الله أشد الجهاد ، وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره .

وذو النون لما لم يكن فى هذا المقام ،سجنه فى بطن الحوت من غضبة ،وقد جعل الله لكل شئ قدرًا [٤] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٣٢) .
(٢) أى : العبد .
(٣) أى : الله عز وجل .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٥) .

سعادة المرء بربه عز وجل

مِنْ أحسن كلام العامة قولهم : لا هَمَّ مع الله [١] .

حاجة الإنسان إلى الله عز وجل

أكثر النوع الإنسانى ليس له قاهر من نفسه،فاحتياجه إلى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وإياله : ينتظم بها أمره ضرورة ، كحاجته إلى مصالحه من الطعام والشراب واللباس [٢] .

حُسْن الفهم منَّةٌ من الله عز وجل

حُسْن الفهم عن الله ورسوله مَنٌّ يمن الله به على من يشاء من عباده [٣] .

محبة الله عز وجل

قال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ـ أو نحو هذا من الكلام [٤] .

محبة الله عز وجل والقرآن

قال بعض الصحابة : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله [٥] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٧١) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٠٤) .
(٣) زاد المعاد (٤ / ٤١٤) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٤) .
(٥) الكلام على مسألة السماع (٤٧٦).

obeikandl.com

أنواع الرجاء

الرجاء ثلاثة أنواع : نوعان محمودان ونوع غرور مذموم .

فالأولان : رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، ورجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها ، فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه ، وجوده وحلمه وكرمه .

والثالث : رجل متماد في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب (١) .

الخوف والرجاء

قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ،ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن . وقد جمع تعالى هذه المقامات الثلاث بقوله : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ [الإسراء : ٥٧] . فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ،فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ،ويقول : المحب لا يضره ذنب .وصنف بعضهم في ذلك مصنفا وذكر فيه أثرا مكذوبا « إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب » وهذا كذب قطعا مناف للإسلام ،فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن ، ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ ، وأما عن رسول الله ﷺ فمعاذ الله من ذلك ، فله محمل ؛ وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب؛ لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا لله ،وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه فإنه يمحى أثره ولا يضره الذنب ، وكلما أذنب وتاب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره ، فهذا المعنى صحيح .

والمقصود : أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٦) .

تخرج عن الدرب ، والرجاء حاد يحدوها ، يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها ، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق ،وتركت تركب التعاسيف ،خرجت عن الطريق وضلت عنها ،فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته ، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدا ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء ،مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا ،فإنه قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾[الاعراف: ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول : خفية ،وقال فى الدعاء: ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الاعراف:٥٦] فلم يحتج أن يقول فى الأول :ادعوا ربكم تضرعا وخيفة،فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام ،ودلت على ذلك أكمل دلالة،وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء ؛ لأن الدعاء مبنى عليه،فإن الداعى مالم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب مالا طمع فيه ممتنع ،وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه .

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (١) .

وأيضا

قال أبو على الروذبارى :الخوف والرجاء كجناحى الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت (٢) .

العبودية والحرية

الناس فى هذا المقام ثلاثة : عبد محض ، وحر محض ، ومكاتب قد أدى بعض كتابته وهو يسعى فى بقية الأداء .

فالعبد المحض : عبد الماء والطين ، الذى قد استعبدته نفسه وشهوته وملكته وقهرته ، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه .

---

(١) بدائع الفوائد (٣ / ١١ ـ ١٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٦) .

والحر المحض : هو الذى قهر شهوته ونفسه وملكها ، فانقادت معه وذلت له ، ودخلت تحت رقه وحكمه .

والمكاتب : من قد عُقد له سبب الحرية وهو يسعى فى كمالها ، فهو عبد من وجه حر من وجه ، وبالبقية التى بقيت عليه من الأداء يكون عبدًا ما بقى عليه درهم ،فهو عبد ما بقى عليه حظ من حظوظ نفسه .

فالحر من تخلص من رق الماء والطين ، وفاز بعبودية رب العالمين ، فاجتمعت له العبودية والحرية ، فعبوديته من كمال حريته ، وحريته من كمال عبوديته (١) .

حبس النفس على الله

أشق ما على النفوس : جمعيتها على الله وهى تناشد صاحبها ألا يوصلها إليه ،وأن يشغلها بما دونه ، فإن حبس النفس على الله شديد ،وأشد منه :حبسها على أوامره وحبسها عن نواهيه ، فهى دائماً ترضيك بالعلم عن العمل ، وبالعمل عن الحال ، وبالحال عن الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من شد مئزر سيره إلى الله ، وعلم أن كل ما سواه فهو قاطع عنه (٢) .

خشية الله عز وجل

قال أحمد بن عاصم : من كان بالله أعرف ، كان له أخوف ، ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] .وقول النبى ﷺ :« أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » (٣) (٤) .

إيثار مرضاة الله عز وجل

إنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق ،وتحمل ثقل ذلك ومؤنته ،

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٧٤) .
(٢) مدارج السالكين (٣ / ١٣٧) .
(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٣٩) .
(٤) البخارى معلقا (الفتح ١ / ٧٠) فى الإيمان ، باب : قول النبى ﷺ : « أنا أعلمكم بالله » ، وانظر : المقاصد الحسنة (١٨٤) ، وكشف الخفاء (٦٠٧) .

وصبر على محنته ؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانًا ،ومظان عطبه نجاة ، وتعبه راحة ، ومؤنته معونة ، وبليته نعمة ، ومحنته منحة ، وسخطه رضى . فياخيبة المتخلفين ، ويا ذلة المتهيبين !

هذا ،وقد جرت سنة الله ـ التى لا تبديل لها ـ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته: أن يسخط عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته،ويجعل محنته على يديه فيعود حامده ذامًا، ومن آثر مرضاته ساخطاً فلا على مقصوده منهم حصل ،ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل ، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم .

هذا مع أن رضى الخلق : لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور ، فهو مستحيل ، بل لابد من سخطهم عليك ، فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك ، أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض ، فإذا كان سخطهم لابد منه ـ على التقديرين ـ فآثر سخطهم الذى ينال به رضى الله ، فإن هم رضوا عنك بعد هذا وإلا فأهون شيء رضى من لا ينفعك رضاه ، ولا يضرك سخطه فى دينك ولا فى إيمانك ولا فى آخرتك ، فإن ضرك فى أمر يسير فى الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم ،وخاصة العقل : احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما ، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما ، فوازن بعقلك ثم انظر أى الأمرين خير فآثره ،وأيهما شر فابعد عنه . فهذا برهان قطعى ضرورى فى إيثار رضى الله على رضى الخلق .

هذا ، مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق ، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه .

قال بعض السلف : لمصانعة وجه واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة ، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها .

وقال الشافعى رضي الله عنه :رضى الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم : أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره ، ولقد أحسن أبو فراس فى هذا المعنى ـ إلا أنه أساء كل الإساءة فى قوله ـ إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعا ولا ضرا :

فليتك تحلو والحياة مريسرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب[١]

الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ

إن كل متوجه إلى الله بالصدق والإخلاص فإنه من المهاجرين إليه فلا ينبغى أن يتخلف عن هذه الهجرة ، بل ينبغى أن يصحبها سرمدا . حتى يلحق بالله عز وجل .

فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ويحمد غب السير من هو سائر

ولله على كل قلب هجرتان وهما فرض لازم له على الأنفاس :

هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والخوف والرجاء والعبودية.

وهجرة إلى رسوله ﷺ : بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته فيكون تعبده به أعظم من تعبد الركب بالدليل الماهر فى ظلم الليل ومتاهات الطريق .

فما لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان من أصله. فيرجع وراءه ليقتبس نورًا قبل أن يحال بينه وبينه،ويقال له ذلك على الصراط من وراء السور . والله المستعان [٢].

حد الخوف

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : حد الخوف ما حجزك عن معاصى الله.، فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه [٣] .

الخوف من الله عز وجل

كل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه [٤].

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٠) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٦٣) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٤) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٥١٣) .

وأيضًا

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « وددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا ، لا لِى ولا علىَّ »، يريد الخلافة ؛ خشية ألا يكون قد قام بحقوقها .

فَخَوْفُه كان يحمله على ذلك القول ، ولم يقل ذلك فى أبى بكر بل ما زال يشهد له فى القيام فى الخلافة بالحق [١] .

الاعتصام بحبل الله عز وجل

الاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل [٢] .

منازل العبودية

من زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد فهو زنديق كافر بالله وبرسوله ، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله والانسلاخ من دينه ، بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه ؛ ولهذا كان الواجب على رسول الله ﷺ - بل على جميع الرسل - أعظم من الواجب على أممهم،والواجب على أولى العزم أعظم من الواجب على من دونهم ،والواجب على أولى العلم أعظم من الواجب على من دونهم ، وكل أحد بحسب مرتبته [٣] .

ما يحبه الله عز وجل ويرضاه

لا سبيل إلى معرفة ما يحبه[٤] ويرضاه إلا بوزنه بميزان الوحى ونقده على محك الأمر،وعرضه على حاكم الشرع ، وتلقيه من مشكاة النبوة ، ثم اعتباره بدار الضرب ، فإن كان نقش سكته : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » [٥] فهو المحبوب المرضى لله

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٤٤٧) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤٦٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٠٤) .
(٤) أى : الله عز وجل .
(٥) البخارى (٢٦٩٧) فى الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح جور فهو مردود ، ومسلم (١٧١٨ / ١٧) فى الأقضية ، باب : نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ، وأبو داود (٤٦٠٦) فى السنة ، باب : فى لزوم

الذى يقبله من عبده ويكرمه عليه ، وإن كان عليه ضرب السكك المحدثة الصادرة على الآراء والأفكار والرسوم والأوضاع فهو المزيف المردود ، فإذا وقع التحاكم إلى هذا الأصل تقرب كل واحد من المتنازعين من صاحبه ، وإلا رفيقك قيسى وأنت يمانى (١) .

وأيضًا

ويجب أن يعرف أن المرجع فى القرب والطاعات والديانات بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويكرهه إلى الله ورسوله ، لا إلى رأى ، ولا قياس ، ولا ذوق ولا وجد، ولا استحسان ، ولا تقليد ، ولا منام ، ولا كشف ، ولا حدثنى قلبى عن أبى ، ولا خوطبت وقيل لى ، ولا رأيت فلانًا يفعل وهو ممن أعتقد فيه الخير ، أو كان فلان يفعل وهو ممن يحسن به الظن ، ونحو ذلك .

فليس لأحد أن يبتدع دينًا لم يأذن به الله ويقول : هذا يحبه الله ؛ لأنه يوصل إلى محبوب الله ،بل هذه الطريق بدل دين الله وشرائعه ،وابتدع الشرك وكل ما لم ينزل به سلطانًا ،وكل ما فى الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة ومشايخ الطريق من الحض على اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، ونهى عن غيره ، فهو لأجل هذا قال تعالى: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الملك : ٢] وهو الخالص لله الموافق لأمره ،كما قاله الفضيل بن عياض وغيره(٢) .

الطريق إلى الله عز وجل

إن الله لا يصل إليه أحد إلا من الطريق التى فتحها ونهجها على ألسن رسله ونصبها لعباده ، وسد جميع الطرق إليه دونها ، فلم يفتح لأحد قط إلا من تلك الطريق ، فالسالك من غيرها لا يصل إليه أبدا ،وكل من لم يصل إليه فهو واصل إلى سقر . قال أبو القاسم الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريق رسول الله ﷺ . وقال : يقول

= السنة ، وابن ماجه (١٤) فى المقدمة ، باب : تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه كلهم بلفظ : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . والحديث باللفظ المذكور فى تفسير القرطبى (١/٣٦٧) ، وفى صحيح البخارى (٣ / ٩١) فى البيوع ، باب: النجش فى الترجمة .

(١) الكلام على مسألة السماع (٢٧٥) . (٢) الكلام على مسألة السماع (٢٧٦) .

الله عز وجل : « وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » (١) (٢) .

أنواع المحبة

المحبة أنواع متعددة :

فأفضلها وأجلها : المحبة فى الله ولله ، وهى تستلزم محبة ما أحب الله ، وتستلزم محبة الله ورسوله .

ومنها : محبة الاتفاق فى طريقة ، أو دين ، أو مذهب ، أو نحلة، أو قرابة ، أو صناعة ، أو مراد ما .

ومنها : محبة لنيل غرض من المحبوب ؛ إما من جاهه أو من ماله ، أو من تعليمه وإرشاده ، أو قضاء وطر منه ، وهذه هى المحبة العرضية التى تزول بزوال موجبها ، فإن من وَدَّك لأمر ، ولَّى عنك عند انقضائه .

وأما محبة المشاكل والمناسبة التى بين المحب والمحبوب ، فمحبة لازمة لا تزول إلا لعارض يزيلها (٣) .

حقيقة محبة الله عز وجل

قال أبو بكر الكتانى : جرت مسألة فى المحبة بمكة ـ أعزها الله تعالى ـ أيام الموسم فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنًا . فقالوا : هات ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ، ثم قال : عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هيبته ،وصفا شربه من كأس وُدِّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ،وإن نطق فعن الله ،وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ، ولله ،ومع الله . فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جزاك الله ياتاج العارفين (٤) .

---

(١) لم أقف عليه .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤١٩) .

(٣) زاد المعاد (٤ / ٢٧٠) .

(٤) مدارج السالكين (٣ /١٦) .

سير العارف إلى الله عز وجل

قال شيخ الإسلام : العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل [١] .

وأيضًا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : العارف لا يرى له على أحد حقًا ولا يشهد له على غيره فضلا ؛ ولذلك لا يعاب ،ولا يطالب ولا يضارب [٢] .

تعظيم الله عز وجل

من كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه ،عظمت عنده مخالفته [٣] .

حجب القلب عن الله عز وجل

الحُجُب عشرة :

حجاب التعطيل ، ونفى حقائق الأسماء والصفات ، وهو أغلظها ، فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ، ولا يصل إليه البتة إلا كما يتهيأ للحجَر أن يصعد إلى فوق .

الثانى : حجاب الشرك ، وهو أن يتعبد قلبه لغير الله .

الثالث : حجاب البدعة القوليّة ، كحجاب أهل الأهواء ، والمقالات الفاسدة على اختلافها .

الرابع : حجاب البدعة العملية ، كحجاب أهل السلوك المبتدعين فى طريقهم وسلوكهم .

---

(١) الوابل الصيب (٩) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٢٣) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ١٤٤) .

الخامس : حجاب أهل الكبائر الباطنة ، كحجاب أهل الكبر والعجب والرياء والحسد ، والفخر والخيلاء ونحوها .

السادس : حجاب أهل الكبائر الظاهرة ، وحجابهم أرق من حجاب إخوانهم من أهل الكبائر الباطنة ، مع كثرة عباداتهم ، وزهاداتهم ، واجتهاداتهم .فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك ؛ فإنها قد صارت مقامات لهم لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها فى قوالب عبادة ومعرفة ، فأهل الكبائر الظاهرة : أدنى إلى السلامة منهم ، وقلوبهم خير من قلوبهم .

السابع : حجاب أهل الصغائر .

الثامن : حجاب أهل الفضلات ، والتوسع فى المباحات .

التاسع : حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وأريد منهم ، وما لله عليهم من دوام ذكره وشكره وعبوديته .

العاشر : حجاب المجتهدين السالكين ، المشمرين فى السير عن المقصود .

فهذه عشر حجب بين القلب وبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحول بينه وبين هذا الشأن . وهذه الحجب تنشأ من أربعة عناصر : عنصر النفس ، وعنصر الشيطان ، وعنصر الدنيا ، وعنصر الهوى ، فلا يمكن كشف هذه الحجب مع بقاء أصولها وعناصرها فى القلب البتة .

وهذه الأربعة العناصر تفسد القول ، والعمل ، والقصد ، والطريق ، بحسب غلبتها وقلتها ، فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب . وما وصل منه إلى القلب قطعت عليه الطريق أن يصل إلى الرب . فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك . وفى هذه المسافة قطاع الطريق المذكورون؛ فإن حاربهم وخَلَص العملُ إلى قلبه دار فيه ، وطلب النفوذ من هناك إلى الله، فإنه لا يستقر دون الوصول إليه ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٤٢] ، فإذا وصل إلى الله ـ سبحانه ـ أثابه عليه مزيدًا فى إيمانه ويقينه ، ومعرفته وعقله ، وجَمَّلَ به ظاهره وباطنه ، فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال ، وصرف عنه به سيئ الأخلاق والأعمال . وأقام الله ـ سبحانه ـ من ذلك العمل للقلب جندًا يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه ، فيحارب الدنيا بالزهد فيها ، وإخراجها من قلبه ، ولا يضره أن تكون فى يده وبيته ، ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة ، يحارب الشيطان بترك الاستجابة لداعى الهوى ، فإن الشيطان مع الهوى لا يفارقه ، ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق ،

والوقوف معه،بحيث لا يبقى له هوى فيما يفعله ويتركه. ويحارب النفس بقوة الإخلاص .

هذا كله إذا وجد العمل منفذًا من القلب إلى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وإن دار فيه ولم يجد منفذًا وَثَبَتْ عليه النفس ،فأخذته وصيرته جندًا لها،فصالت به وعَلَتْ وطغت، فتراه أزهد ما يكون ، وأعبد ما يكون ، وأشده اجتهادًا ،وهو أبعد ما يكون عن الله ، وأصحاب الكبائر أقرب قلوبًا إلى الله منه، وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فانظر إلى السجاد العباد ، الزاهد الذى بين عينيه أثر السجود ،كيف أورثه طغيان عمله: أن أنكر على النبى ﷺ ،وأورث أصحابه احتقار المسلمين ،حتى سلوا عليهم سيوفهم ، واستباحوا دماءهم .

وانظر إلى الشريب السكير ، الذى كان كثيرًا ما يؤتى به إلى النبى ﷺ ، فيحده على الشراب ، كيف قامت به قوة إيمانه ويقينه ، ومحبته لله ورسوله ، وتواضعه وانكساره لله، حتى نهى رسول الله ﷺ عن لعنته .

فظهر بهذا : أن طغيان المعاصى أسلم عاقبة من طغيان الطاعات .

وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد : « أن الله ـ سبحانه ـ أوحى إلى موسى ﷺ: يا موسى ، أنذر الصديقين ، فإنى لا أضع عدلى على أحد إلا عذبته ، من غير أن أظلمه، وبشر الخطائين ؛ فإنه لا يتعاظمنى ذنب أن أغفره »(١) .

ما يسأل عنه الأولون والآخرون

قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون :

ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟(٢) .

التوكل على الله عز وجل

مَنْ صدق توكله على الله فى حصول شىء ناله ، فإن كان محبوبًا له مرضيًا كانت له فيه العاقبة المحمودة ، وإن كان مسخوطًا مبغوضًا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه ،وإن

(١) مدارج السالكين (٣ / ٢٢٣ ـ ٢٢٥) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٤١) .

كان مباحًا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه إن لم يستعن به على طاعته، والله أعلم [١] .

وأيضًا

لو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله[٢] .

الأخذ بالأسباب

الالتفات إليها [٣] بالكلية شرك مناف للتوحيد ، وإنكار أن تكون أسبابًا بالكلية قدح فى الشرع والحكمة ، والإعراض عنها ـ مع العلم بكونها أسبابًا ـ نقصان فى العقل ، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض وتسليط بعضها على بعض وشهود الجمع فى تفرقها والقيام بها : هو محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة [٤] .

وأيضًا

مصالح الدنيا والآخرة وإن كانت مفروغا منها قضاء وقدرا ، فهى منوطة بأسبابها التى يتوقف حصولها عليها شرعا وخلقا [٥] .

كلام الله عز وجل

قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلمًا أو يكون القرآن كلامه فقد أنكر رسالة محمد ﷺ ، بل ورسالة جميع الرسل التى حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى [٦] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١١٤) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٨١) .
(٣) أى : الأسباب .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٢٤٤) .
(٥) طريق الهجرتين (٣٤١) .
(٦) مدارج السالكين (١ / ٧٠) .

وأيضا

الشافعى أخذ عن إسماعيل بن علية وهو من أكبر شيوخه ، وأما ابنه إبراهيم تلميذ عبد الرحمن بن كيسان الأصم فكان الشافعى يذمه ويقول فيه : « أنا مخالف لابن علية فى كل شيء حتى فى قول لا إله إلا الله، فإنى أقول: لا إله إلا الله الذى كلم موسى من وراء حجاب ، وهو يقول : لا إله إلا الله الذى خلق فى الهواء كلامًا أسمعه موسى ، وهذا هو الذى يذكر له أقوال شاذة فى الفقه وأصوله ، ويظن من لا علم عنده أنه إسماعيل وليس الأمر كذلك ، فإن أباه إسماعيل من أجل شيوخ الشافعى وأحمد وطبقتهما[١].

القَدَر

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده [٢] .

وأيضًا

الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا إلا أنا فانفتحت لى فيه روزنة فتنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعًا للقدر لا من يكون مستسلمًا مع القدر[٣] . ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم [٤] .

الشفاعة

ثلاثة أصول تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها : لا شفاعة إلا بإذنه ، ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله ، ولا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله [٥] .

---

(١) الكلام على مسألة السماع (٣٥٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٤١٠) .
(٣) من كلام الشيخ عبد القادر الكيلانى .
(٤) مدارج السالكين (١ / ١٩٩) .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٣٤١) .

obeikandl.com

جنة الدنيا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة [١] .

وأيضًا

قال بعض العارفين : إنه ليمر بالقلب أوقات . أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا، إنهم لفى عيش طيب [٢] .

أطيب ما فى الدنيا

قال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب ما فيها ، قالوا : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه ، أو نحو هذا من الكلام [٣] .

حظ العبد من الدنيا

كل ما خالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته مالاً كان أو رياسة ، أو صورة ، أو حالاً أو ذوقًا ، أو وجدًا [٤] .

ومن علاجها [٥] : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ، فمن رضى فله الرضى، ومن سخط فله السخط ، فحظك منها ما أحدثته لك ، فاختر خير الحظوظ أو شرها ، فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا ، كتب فى ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا فى ترك واجب ، أو فعل محرم ،كتب فى ديوان المفرطين ، وإن أحدثت له شكاية ، وعدم صبر، كتب فى ديوان المغبونين ،وإن أحدثت له اعتراضًا على الله ، وقدحًا فى حكمته ، فقد قرع باب الزندقة أو ولجه ، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله ، كتب فى ديوان الصابرين، وإن

(١ ـ ٣) مدارج السالكين (١ / ٤٥٤) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٩٥) .
(٥) أى : المصيبة .

أحدثت له الرضى عن الله ، كتب فى ديوان الراضين ، وإن أحدثت له الحمد والشكر، كتب فى ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمادين ،وإن أحدثت له محبة واشتياقا إلى لقاء ربه ، كتب فى ديوان المحبين المخلصين .

وفى مسند الإمام أحمد ، والترمذى ، من حديث محمود بن لبيد يرفعه : « إن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » (١) . زاد أحمد : « ومن جزع فله الجزع » (٢) .

قال بعض الحكماء : العاقل يفعل فى أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام ، ومن لم يصبر صبر الكرام ، سلا سلو البهائم ،وفى الصحيح مرفوعاً :« الصبر عند الصدمة الأولى » (٣) .وقال الأشعث بن قيس: إنك إن صبرت إيماناً واحتسابًا ، وإلا سلوت سلو البهائم (٤) .

إن المصيبة كير العبد الذى يسبك به حاصله ، فإما أن يخرج ذهبًا أحمر، وإما أن يخرج خبيثًا كله ، كما قيل :

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير فى الدنيا ، فبين يديه الكير الأعظم ، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لا بد من أحد الكيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه فى الكير العاجل (٥) .

مصائب الدنيا

قال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا لوردنا القيامة مفاليس (٦) .

---

(١) الترمذى : (٢٣٩٦) فى الزهد ، باب : ما جاء فى الصبر على البلاد ، وقال :« حسن غريب » ، واللفظ له، وأحمد (٥ / ٤٢٨ ، ٤٢٩) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ١٩٤) فى الجنائز ، باب : فيمن يبتلى : «رجاله ثقات » .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٩٢ ، ١٩٣) .

(٣) البخارى : (١٣٠٢) فى الجنائز ، باب : الصبر عند الصدمة الأولى ومسلم (٩٢٦ / ١٤) فى الجنائز ، باب : فى الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ، والترمذى (٩٨٨) فى الجنائز ، باب : ما جاء أن الصبر فى الصدمة الأولى .

(٤) زاد المعاد (٤ / ١٩٣) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ١٩٤ ، ١٩٥) .

(٦) زاد المعاد (٤ / ١٩٢) .

اقتفاء هدى النبى ﷺ

مصباح الموحد السالك على درب الرسول وطريقه : يتوقد ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ﴾ [النور : ٣٥] (١).

وأيضًا

الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ (٢) .

وأيضًا

إذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه ، فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كنزاً من كنوز العلم ، ولم تؤت مفاتحه بعد . هذا فى حق نفسك، وأما بالنسبة إلى غيرك : فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحى ، وليكن ردها أيسر شىء عليك للنصوص ، فمالهم تفعل ذلك فلست على شىء ، ولو ... ولو ... وهذا لاخلاف فيه بين العلماء .

قال الشافعى ـ قدس الله روحه : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ : لم يحل له أن يدعها لقول أحد (٣) .

عصمة النبى ﷺ

إن كل واحد ـ غير المعصوم ﷺ ـ فمأخوذ من قوله ومتروك ، وكل سبيل لا يوافق سبيله فمهجور غير مسلوك (٤).

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٩٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٠٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٤) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٢٤٩) .

obeikandl.com

فصاحة النبى ﷺ

العرب أفصح الأمم ، وقريش أفصح العرب ، وهو [١] فى نفسه كان أفصح قريش على الإطلاق [٢] .

الحق فيما جاء به النبى ﷺ

الشبلى ومن هو أكبر من الشبلى من الشيوخ لابد من عرض أحواله وأقواله على ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق ، فيقبل منها ما وافق الحق ، ويرد منها ما خالفه، وما احتمل الأمرين جعل من المحتملات التى لا تقبل مطلقًا ولا ترد مطلقًا ، وبهذا الميزان يوزن كلام من دون رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله كائنًا من كان [٣] .

وأيضًا

مدار الأمر كله على المتابعة للشريعة النبوية فى الأقوال والأفعال والنيات ، فمهما ثبت أنه قد قاله أو فعله فهو الحق الذى لا معدل عنه ولاحق وراءه ، وما لم يقله ولم يفعله فهو من البدع التى قال ﷺ :« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عَضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ،فإن كل محدثة بدعة ،وكل بدعة ضلالة » [٤]، وفى لفظ : « وكل ضلالة فى النار » [٥] ، وثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال: « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » [٦] ، وروى عنه أنه ﷺ قال : « ما تركت شيًا يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به ، وما تركت شيئًا يباعدكم عن النار إلا وقد بينته لكم» [٧]، وعنه قال :

---

(١) أى : النبى ﷺ . (٢) الصواعق المرسلة (٢ / ٦٥١) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٤٢٦) .

(٤) أبو داود : (٤٦٠٧) فى السنة ، باب : فى لزوم السنة ، والترمذى (٢٦٧٦) فى العلم ، باب : ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ، وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه (٤٢) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وأحمد ٤ / ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٥) أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٢) فى الكتب والأبواب السابقة ، وأحمد (٤ / ١٢٦ ، ١٢٧) . .

(٦) سبق تخريجه ص ٣٤٩ برقم (٥) .

(٧) عبد الرزاق : (٢٠١٠٠) فى باب : القدر مرسلاً .

«تركتكم على البيضاء ، ليلها ونهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : ٥٤] ، وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم ﴾[النور : ٦٣] ، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ الآية [آل عمران : ٣١](٢) .

وأيضًا

كل من بعد رسول الله ﷺ يجب عرض أقواله وأفعاله وأحواله على ما جاء به الرسول ، فإن كانت مقبولة لديه قبلت وإلا ردت . فأبى الظالمون المفتنون إلا عرض ما جاء به الرسول ﷺ على أقوال الشيوخ وطريقتهم فأضلهم ، فعم بذلك المصاب ، وعظمت المحنة ، واشتدت الزرية ، واشتدت غربة الدين وأهله ، وظن بهم الجاهلون أنهم هم أهل البدع ، وأصحاب الطرائق والآراء هم أهل السنة ، ويأبى الله إلا أن يقيم دينه ويتم نوره ، ويعلى كلماته وكلمات رسوله ، وينصر حزبه ولو كره المبطلون (٣) .

وأيضًا

قيل لبعض الإعراب ـ وقد أسلم لما عرف دعوته ﷺ : عن أى شىء أسلمت ؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله ﷺ ؟ قال : « ما أمر بشىء فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء فقال العقل : ليته أمر به ،ولا أحل شيئًا فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئًا فقال العقل : ليته أباحه » (٤) .

فضل صحابة النبى ﷺ

كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص شىء على استنباط أحاديث رسول الله ﷺ من القرآن ، ومن ألزم نفسه ذلك وقرع بابه ووجه قلبه إليه واعتنى به بفطرة سليمة وقلب ذكى ، رأى

---

(١) ابن ماجه (٥) فى المقدمة ، باب : اتباع سنة رسول الله ﷺ و (٤٣) باب : اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، وأحمد (٤ / ١٢٦) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤٧٤) .

(٣) الكلام على مسألة السماع (١٤٥) .

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٣٥) .

السنة كلها تفصيلاً للقرآن ، وتبيينا لدلالته ، وبيانا لمراد الله منه ، وهذا أعلى مراتب العلم فمن ظفر به فليحمد الله ، ومن فاته فلا يلومن إلا نفسه وهمته وعجزه [١] .

وأيضًا

وقد قال بعض السلف: مثل أصحاب محمد مثل العين ، ودواء العين ترك مسها [٢] .

الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم

قد قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]،وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :« من كان منكم مُسْتَنًّا فليستَن بمن قد مات ،فإن الحى لا يؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد: أبَرُّ هذه الأمة قلوبًا ،وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ،قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ،فاعرفوا لهم حقهم ،وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » .

فلا تجد هذا التكلف الشديد ، والتعقيد فى الألفاظ والمعانى عند الصحابة أصلا.

وإنما يوجد عند من عَدَل عن طريقهم ، وإذا تأمله العارف وجده :« كلحم جمل غث، على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل »،فيطول عليك الطريق، ويوسع لك العبارة ، ويأتى بكل لفظ غريب ومعنى أغرب من اللفظ ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلا طائلا ، ولكن تسمع جعجعة ولا ترى طِحْنًا ، فالمتكلمون فى جعاجع الجواهر والأعراض والأكوان والألوان ، والجوهر الفرد ، والأحوال والحركة والسكون ، والوجود والماهية والانحياز،والجهات والنسب والإضافات،والغيرين والخلافين،والضدين والنقيضين، والتماثل والاختلاف ،والعرض هل يبقى زمانين ؟ وما هو الزمان والمكان ؟ ويموت أحدهم ولم يعرف الزمان والمكان ،ويعترف بأنه لم يعرف الوجود : هل هو ماهية الشىء ، أو زائد عليها ؟ ويعترف : أنه شاك فى وجود الرب : هل هو وجود محض ، أو وجود مقارن للماهية ؟ ويقول : الحق عندى الوقف فى هذه المسألة .

---

(١) زاد المعاد (٥ / ١٢٨) .

(٢) زاد المعاد (٤ / ١٠٩) .

ويقول أفضلهم ـ عند نفسه ـ عند الموت : أخرج من الدنيا وما عرفت إلا مسألة واحدة، وهى أن الممكن يفتقر إلى واجب . ثم قال : الافتقار أمر عدمى ، فأموت ولم أعرف شيئًا . وهذا أكثر من أن يذكر،كما قال بعض السلف : أكثر الناس شكا عند الموت : أرباب الكلام .

وآخرون أعظم تكلفًا من هؤلاء وأبعد شيء عن العلم النافع ، وهم : أرباب الهيولى والصورة والاصطقصات ،والأركان والعلل الأربعة ، والجواهر العقلية ، والمفارقات ، والمجردات ،والمقولات العشر ،والكليات الخمس ،والمختلطات والموجهات ، والقضايا المسوارات ، والقضايا المهملات . فهم أعظم الطوائف تكلفًا ، وأقلهم تحصيلا للعلم النافع والعمل الصالح .

وكذلك المتكلفون من أصحاب الإرادة والسلوك ، وأرباب الحال والمقام ،والوقت والمكان ، والبادى والباذه والوارد ،والخاطر والواقع والقادح واللامع ، والغيبة والحضور، والمحق والحق ،والسكر ،واللوائح والطوالع ،والعطش ، والدهش ،والتلبيس ، والتمكين والتلوين ،والاسم والرسم ، والجمع وجمع الجمع ، وجمع الشواهد وجمع الوجود ، والأثر ،والكون ،والبون،والاتصال والانفصال،والمسامرة والمشاهدة،والمعاينة ، والتجلى ، والتخلى،وأنا بلا أنا ،وأنت بلا أنت،ونحن بلا نحن،وهو بلا هو . وكل ذلك أدنى إشارة إلى تكلف هؤلاء الطوائف وتنطعهم .

وكذلك كثير من المنتسبين إلى الفقه لهم مثل هذا التكلف وأعظم منه . فكل هؤلاء محجوبون بما لديهم ، موقوفون على ما عندهم ، خاضوا ـ بزعمهم ـ بحار العلم ، وما ابتلت أقدامهم . وكدوا أفكارهم وأذهانهم وخواطرهم ، وما استنارت بالعلم الموروث عن الرسل قلوبهم وأفهامهم ، فرحين بما عندهم من العلوم راضين بما قيدوا به من الرسوم . فهم فى واد ورسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم فى واد ، والله يعلم أنا لم نتجاوز فيهم ، بل قصرنا فيما ينبغى لنا أن نقوله ، فذكرنا غَيضا من فيض ، وقليلا من كثير .

وهؤلاء كلهم داخلون تحت الرأى ، الذى اتفق السلف على ذمه وذم أهله . فهم أهل الرأى حقا ، الذين قال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه :« إياكم وأصحاب الرأى ، فإنهم أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها فقالوا بالرأى ، فضلوا وأضلوا » ، وقال أيضا : « أصحاب الرأى أعداء السنن ، أعيتهم أن يعوها ،وتفلتت عليهم أن يرووها ، فاشتغلوا عنها بالرأى »،وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه :« أى أرض تُقِلُّنى ؟ وأى سماء تُظِلنى؟ إن قلت

فى كتاب الله برأيى ، أو بما لا أعلم » ، وقال عمر ﷺ : « يا أيها الناس ، إن الرأى كان من رسول الله ﷺ مصيبًا ؛ لأن الله عز وجل كان يريه ، وإنما هو منا الظن والتكلف»،وقال ابن عباس ﷺ : « من أحدث رأيا ليس فى كتاب الله ،ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ ، لم يرد ما هو على ما هو منه إذا لقى الله عز وجل » ، وقال عمر ﷺ : يا أيها الناس ، اتهموا رأيكم على الدين ، فقد رأيتنى ، وإنى لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيى ، أجتهد . والله ما آلو ذلك يوم أبى جَنْدَل والكتاب يكتب،فقالوا : تكتب باسمك اللهم ، فرضى رسول الله ﷺ وأبيت ، فقال : « يا عمر ، ترانى قد رضيت وتأبى ؟ » (١) وقال ﷺ فى الحديث الذى رويناه من طريق مسدد حدثنا يحيى بن سعيد ، عن ابن جريج ، أخبرنى سليمان بن عتيق ، عن طلق بن حبيب ، عن الأحنف ابن قيس ، عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال : « ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون ، ألا هلك المتنطعون » (٢) فإن لم تكن هذه الألفاظ والمعانى التى تجدها فى كثير من كلام هؤلاء تنطعًا فليس للتنطع حقيقة ، والله سبحانه وتعالى أعلم » (٣) .

فضل الصديق ﷺ

ما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل ، وقد كان فيهم من هو أكثر صيامًا وحجًا وقراءة وصلاة منه ، ولكن بأمر آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه (٤) .

مكانة السلف

لا بد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم ، إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم ولو بزر لهم هديهم وحالهم لأنكروه ولعدوه سلوكًا

---

(١) الطبرانى فى الكبير (١ / ٧٢ (٨٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (١ / ١٨٤) فى العلم ، باب فى القياس والتقليد : « رواه أبو يعلى ، ورجاله موثقون وإن كان فيهم مبارك بن فضالة » ، وقلت : « ولم أقف عليه عند أبى يعلى » .

(٢) مسلم (٢٦٧٠ / ٧) فى العلم ، باب : هلك المتطعون ، وأبو داود (٤٦٠٨) فى السنة ، باب فى لزوم السنة ، وأحمد (١ / ٣٨٦) .

(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٣٦ ـ ٤٣٩) .

(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٣٨) .

عاميًا وللخاصة سلوك آخر كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم : « إن القوم كانوا أسلم ، وإن طريقنا أعلم » ، وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه : « إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه وضبط قواعده وأحكامه ، اشتغالاً منهم بغيره ، والمتأخرون تفرغوا لذلك، فهم أفقه » .

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف، وعن عمق علومهم ، وقلة تكلفهم، وكمال بصائرهم .وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها ،وضبط قواعدها ،وشد معاقدها ،وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شىء .

فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن و﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] (١).

وأيضًا

للسلف غَوْرٌ ودِقَّة فَهْمٍ ، لا يدركها كثير من المتأخرين (٢) .

الاستغفار

قلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ يومًا : سئل بعض أهل العلم : أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال : إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دنسا فالصابون والماء الحار أنفع له ، فقال لى رحمه الله تعالى : فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟ ! (٣) .

وأيضًا

قد قيل :علامة رضى الله عنك :إعراضك عن نفسك ،وعلامة قبول عملك :احتقاره واستقلاله وصغره فى قلبك ، حتى إن العارف ليستغفر الله عقيب طاعته ، وقد كان رسول الله ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا ، وأمر الله عباده بالاستغفار عقيب الحج ، ومدحهم على الاستغفار عقيب قيام الليل ،وشرع النبى ﷺ عقيب الطهور التوبة والاستغفار .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ١٣٩) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٢) .
(٣) الوابل الصيب (١٨٨) .

فمن شهد واجب ربه ومقدار عمله وعيب نفسه ، لم يجد بدًا من استغفار ربه منه ، واحتقاره إياه ،واستصغاره [١] .

التوبة

أكثر الناس لا يعرفون قدر « التوبة » ولا حقيقتها فضلاً عن القيام بها علمًا وعملا وحالاً ، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه[٢] .

وأيضًا

لا ينجى من هذا [٣] إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان أن النبى ﷺ قال: « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا رسول الله ؟ قال : أن تقول : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » [٤] [٥].

الإخلاص

قيل : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله .

ومن كلام الفضيل : ترك العمل من أجل الناس : رياء ، والعمل من أجل الناس : شرك ، والإخلاص : أن يعافيك الله منهما [٦] .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٢) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٠٦) .
(٣) إشارة إلى تأخير التوبة .
(٤) البخارى فى الأدب المفرد (٧١٦) ، وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، باب : الشرك ، والدر المنثور (٤ / ٥٤) ، وعزاه لابن المنذر وابن أبى حاتم .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٢٧٣) .
(٦) مدارج السالكين (٢ / ٩١) .

وأيضا

إذا غُرست شجرة المحبة فى القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب ، أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت فى قرار القلب ، وفرعها متصل بسدرة المنتهى [١] .

وأيضا

من لم يكن الله مراده أراد ما سواه ، ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه ، ومن لم يكن عمله لله فلا بد أن يعمل لغيره . وقد تقدم هذا [٢] .

وأيضا

قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة [٣] .

المراقبة

أرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى فى الخواطر سبب لحفظها فى حركات الظواهر ، فمن راقب الله فى سره حفظه الله فى حركاته فى سره وعلانيته [٤] .

وأيضا

قال أبو حفص لأبى عثمان النيسابورى : إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٩) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٧) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٨٣) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٦٦) .

ونفسك،ولا يغرنك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك ،والله يراقب باطنك [١] .

الصبر

قد أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه بالصبر الجميل ، والصفح الجميل ، والهجر الجميل . فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول:« الصبر الجميل هو الذى لا شكوى فيه ولا معه ، والصفح الجميل هو الذى لا عتاب معه ، والهجر الجميل هو الذى لا أذى معه » [٢] .

وأيضًا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له فى الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه ،فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر ، وأما صبره عن المعصية : فصبر اختيار روضى ومحاربة للنفس ، ولا سيما مع الأسباب التى تقوى ،معها دواعى الموافقة ، فإنه كان شابا ، وراعية الشباب إليها قوية ، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته ، وغريبًا ، والغريب لا يستحى فى بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله ، ومملوكًا ، والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر ، والمرأة جميلة ، وذات منصب ، وهى سيدته ،وقد غاب الرقيب ،وهى الداعية له إلى نفسها ،والحريصة على ذلك أشد الحرص ،ومع ذلك توعدته إن لم يفعل : بالسجن والصغار ، ومع هذه الدواعى كلها :صبر اختيارا وإيثارًا لما عند الله ، وأين هذا من صبره فى الجب على ما ليس من كسبه ؟

وكان يقول :الصبر على أداء الطاعات :أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ؛ فإن مصلحة فعل الطاعة : أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة : أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية [٣] .

وأيضا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : بالصبر واليقين تنال

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٦) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٦٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٥٦) .

الإمامة فى الدين ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة : ٢٤] (١) .

وأيضا

إن حال الصبر حال المحافظ على الصحة والقوة ، وحال الشاكر حال المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم (٢) .

الصدق

الشطحات ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات ، ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ،ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول ﷺ (٣).

وأيضا

إن من بذل نفسه لله بصدق كره بقاءه معها ؛ لأنه يريد أن يتقبلها من بذلت له؛ ولأنه قد قربها له قربانا ،ومن قرب قرباناً فتقبل منه ، ليس كمن رد عليه قربانه ، فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يتقبل قربانه (٤) .

صدق الطلب

قال بعض الصادقين : انفرادك فى طريق طلبك : دليل على صدق الطلب ، وقال آخر : لا تستوحش فى طريقك من قلة السالكين ، ولا تغتر بكثرة الهالكين (٥) .

التواضع

النفس قرينة الشيطان ومصاحبته ، وتشبهه فى صفاته . ومواهب الرب تبارك وتعالى

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٥٤) .
(٢) عدة الصابرين (١٥٠) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٧) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٥) .

تنزل على القلب والروح ، فالنفس تسترق السمع ، فإذا نزلت على القلب تلك المواهب : وثبت لتأخذ قسطها منها وتصيره من عدتها وحواصلها ، فالمسترسل معها الجاهل بها : يدعها تستوفى ذلك ، فبينا هو فى موهبة القلب والروح وعدة وقوة له ، إذا صار ذلك كله من حاصل النفس وآلتها وعددها ، فصالت به وطغت ؛ لأنها رأت غناها به . والإنسان يطغى أن رآه استغنى بالمال ، فكيف بما هو أعظم خطرا وأجل قدراً من المال بما لا نسبة بينهما : من علم أو حال أو معرفة أو كشف ؟ فإذا صار ذلك من حاصلها : انحرف العبد به ـ ولابد ـ إلى طرف مذموم من جرأة أو شطح أو إدلال ونحو ذلك .

فوالله كم ههنا من قتيل وسليب وجريح يقول : من أين أتيت ؟ ومن أين دهيت ؟ ومن أين أصبت ؟ وأقل ما يعاقب به من الحرمان بذلك : أن يغلق عنه باب المزيد ؛ ولهذا كان العارفون وأرباب البصائر : إذا نالوا شيئاً من ذلك انحرفوا إلى طرف الذل والانكسار ومطالعة عيوب النفس ، واستدعوا حارس الخوف ، وحافظوا على الرباط بملازمة الثغر بين القلب وبين النفس ، ونظروا إلى أقرب الخلق من الله وأكرمهم عليه ، وأدناهم منه وسيلة وأعظمهم عنده جاها ، وقد دخل مكة يوم الفتح وذقنه تمس قُربوس سرجة : انخفاضا وإنكساراً وتواضعاً لربه تعالى فى مثل تلك الحال التى عادة النفوس البشرية فيها : أن يملكها سرورها ، وفرحها بالنصر والظفر والتأييد ويرفعها إلى عنان السماء .

فالرجل : من صان فتحه ونصيبه من الله ، وواراه عن استراق نفسه وبخل عليها به، والعاجز : من جاد لها به . فياله من جود ما أقبحه ، وسماحة ما أسفه صاحبها ، والله المستعان (١) .

وأيضا

لقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس اللّه روحه ـ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيرا : مالى شيء ،ولا منى شيء، ولا فيَّ شيء ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت.

أنا المُكَدّى وابن المكدى ... وهكذا كان أبى وجدى

(١) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٤) .

وكان إذا أثنى عليه فى وجهه يقول : واللّه ، إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت ، وما أسلمت بعد إسلاماً جيدا .

وبعث إلىَّ فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطة ، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسيكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى وهى ظالمتى ... والخير إن يأتنا من عنده يأتى
لا أستطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرات
وليس لى دونه مولّى يُدبِّرنى ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء فى الآيات
ولست أملك شيئًا دونه أبدًا ... ولا شريك أنا فى بعض ذرات
ولا ظهير له ، كى يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لى وصف ذات لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتى
وهذه الحال حال الخلق أجمهم ... وكلهم عنده عبد له آتى
فمن بغى مطلبا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله مِلء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قدياتى [1]

الشكر

الشكر قيد النعم [2].

النصيحة

من دقيق الفطنة : أنك لا ترد على المطاع خطأه بين الملأ فتحمله رتبته على نصره الخطأ وذلك خطأ ثان ، ولكن تلطف فى إعلامه به حيث لا يشعر به غيره [3] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢٤ ـ ٥٢٥) .
(٢) عدة الصابرين (١٢٢) .
(٣) الطرق الحكمية (٤٠) .

الفراسة

لولا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك وهو عرضه الوهم والخطأ : لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم ، ولا نجرى معهم فى مضمارهم ، ونراهم فوقنا فى مقامات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدرارى ، ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ، ومن رأى فى كلامنا زيغًا أو نقصًا وخطأ ، فليهد إلينا الصواب ، ونشكر له سعيه،ونقابله بالقبول والإذعان والانقياد والتسليم ، والله أعلم وهو الموفق (١).

وأيضا

قال عمرو بن نجيد : كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطئ ، ويقول : من غض بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بالمراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته (٢) .

وأيضا

قال ابن مسعود رضي الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : العزيز فى يوسف حيث قال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف : ٢١] ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها فى موسى : ﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾ [القصص : ٢٦] وأبو بكر فى عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه . وفى رواية أخرى ، وامرأة فرعون حين قالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص : ٩] (٣) .

الزهد

قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٣٧) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٤) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٥) .

والثانى : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين [١] .

وأيضا

العاقل يقف على البساط ويحذر من الانبساط ، وهـذا شأن عـقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم : إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم ويهيج أفراحهم ، قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار ، حتى كأنه لم يهجم عليهم. وقال كعب بن زهير فى مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قومًا وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا [٢]

وأيضا

مِنْ أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن أو غيره : ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة ـ إذا أصبت بها ـ أرغب منك فيها لو لم تصبك . فهذا من أجمع كلام فى الزهد وأحسنه [٣] .

وأيضا

متى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر ، ومتى كان فى قلبك ضرك، ولو لم يكن فى يدك منه شىء . قيل للإمام أحمد : أيكون الرجل زاهدًا ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت ؛ ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال [٤] .

حسن الخلق

حُسْن الخلق يقوم على أربعة أركان ، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر والعفة

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٤) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٣) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٤٦٥) .

والشجاعة والعدل .

فالصبر : يحمله على الاحتمال ، وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأناة والرفق ، وعدم الطيش والعجلة .

والعفة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والغيبة والنميمة .

والشجاعة : تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالى الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى الذى هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته ، وتحمله على كظم الغيظ والحلم ، فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش، كما قال النبى ﷺ: « ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[(١)]. وهو حقيقة الشجاعة ، وهى ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه .

والعدل : يحمله على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط . فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة ، وعلى خلق الشجاعة الذى هو توسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس .

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة [(٢)] .

وأيضا

قال صاحب المنازل : « الخلق : ما يرجع إليه المتكلف من نعمته » ، أى خلق كل متكلف : فهو ما اشتملت عليه نعوته . فتكلفه يرده إلى خلقه ، كما قيل :

إن التخلق يأتى دونه الخلق

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فمتكلف ما ليس من نعته ولا شيمته : يرجع إلى شيمته ونعته وسجيته [(٣)] .

---

(١) البخارى (٦١١٤) فى الأدب ، باب : الحذر من الغضب ، ومسلم (٢٦٠٩ / ١٠٧) فى البر والصلة والآداب، باب : فضل من يملك نفسه عند الغضب ، وأحمد (٢ / ٢٣٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٧ ، ٣٠٨) . (٣) مدارج السالكين (٢ / ٣١٦) .

المجاهدة

من ترك المجاهد بالكلية ضعف فيه باعث الدين ،وقوى فيه باعث الشهوة . ومتى عود نفسه مخالفة الهوى غلبه متى أراد [١] .

فضل الصمت

الكلام أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره [٢] .

وأيضا

لو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف [٣] .

اللسان ينبئ عن القلب

قال يحيى بن معاذ : القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها . فانظر إلى الرجل حين يتكلم ، فإن لسانه يغترف لك مما فى قلبه ، حلو وحامض ، وعذب وأجاج، وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه [٤] .

آفات اللسان

أكثر آفات الناس من الألفاظ ، ولا سيما فى هذه المواضع التى يعز فيها تصور الحق على ما هو عليه والتعبير المطابق ، فيتولد من ضعف التصور وقصور التعبير : نوع تغبيط ، ويتزايد على ألسنة السامعين له وقلوبهم ، بحسب قصورهم وبعدهم من العلم فتفاقم الخطب وعظم الأمر ، والتبس طريق أولياء الله الصادقين بطرائق الزنادقة الملحدين [٥] .

---

(١) عدة الصابرين (٨١) .
(٢) الداء والدواء (٢٨١) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٢١) .
(٤) الداء والدواء (٢٧٦) .
(٥) مدارج السالكين (٣ / ٧٨) .

obeikandl.com

حسن اختيار الألفاظ

الأولى العدول عن لفظ « المسامرة » [١] إلى « المناجاة » ، فإنه اللفظ الذى اختاره رسول الله ﷺ فى هذا . وعبر به عن حال العبد بقوله :« إذا قام أحدكم فى الصلاة فإنه يناجى ربه » [٢] ،وفى الحديث الآخر : « كلكم يناجى ربه ، فلا يجهر بعضكم على بعض» [٣] ، فلا تعدل عن ألفاظه ﷺ فإنها معصومة وصادرة عن معصوم ، والإجمال والإشكال فى اصطلاحات القوم وأوضاعهم وبالله والتوفيق [٤] .

وأيضا

إياك ثم إياك والألفاظ المجملة المشتبهة التى وقع اصطلاح القوم عليها ، فإنها أصل البلاء وهى مورد الصديق والزنديق ، فإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله تعالى لفظ «اتصال وانفصال ومسامرة ومكالمة ، وأنه لا وجود فى الحقيقة إلا وجود الله ، وأن وجود الكائنات خيال ووهم وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره » فاسمع منه ما يملك الآذان من حلول واتحاد وشطحات .

والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها ، وأرادوا بها معانى صحيحة فى أنفسها ، فغلط الغالطون فى فهم ما أرادوه ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم ، واتخذوا كلماتهم المتشابهة ترسًا لهم وجنة حتى قال قائلهم :

ومنك بدا حب بعز تمازجا بنا ووصالا كنت أنت وصلته

ظهرت لمن أبقيت بعد فنائه وكـان بـلا كـون لأنـك كنته

فيسمع الغر « التمازج والوصال » فيظن أنه ـ سبحانه ـ نفس كون العبد فلا يشك أن هذا هو غاية التحقيق ونهاية الطريق [٥] .

---

(١) بمعنى : مناجاة القلب ربه .

(٢) البخارى (٥٣١) فى مواقيت الصلاة ، باب : المصلى يناجى ربه عز وجل .

(٣) الطبرانى فى الكبير ١٢ / ٤٢٨ (١٣٥٧٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٢٦٨) فى الصلاة، باب : الجهر بالقرآن وكيف يقرأ : « وفيه محمد بن أبى ليلى وفيه كلام ، قلت : وفى الصحيح منه الاعتكاف » .

(٤) مدارج السالكين (٣ / ٩٩) .

(٥) مدارج السالكين (٣ / ١٥١) .

كلام الأولين والآخرين

كلامهم [١] قليل فيه البركة ، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة [٢] .

قبول الكلام أو رده

أكثر العقول كما عهدت تقبل القول بعبارة وترده بعينه بعبارة أخرى [٣] .

الفتوّة

قال الإمام أحمد رضي الله عنه فى رواية ابنه عبد الله عنه وقد سئل عن الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى .

ولا أعلم لأحد من الأئمة الأربعة فيها سواه [٤] .

الهمة

ولله الهمم : ما أعجب شأنها ، وأشد تفاوتها فهمة متعلقة بمن فوق العرش وهمة حائمة حول الأنتان والحش ، والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسنه ، والخاصة تقول : قيمة المرء ما يطلبه ، وخاصة الخاصة تقول : همة المرء إلى مطلوبه .

وإذا أردت أن تعرف مراتب الهمم ، فانظر إلى همة ربيعة بن كعب الأسلمى رضي الله عنه وقد قال له رسول الله ﷺ : « سلنى » فقال : أسألك مرافقتك فى الجنة [٥] .

وكان غيره يسأله ما يملأ بطنه أو يوارى جلده .

وانظر إلى همة رسول الله ﷺ حين عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأباها ، ومعلوم أنه لو أخذها لأنفقها فى طاعة ربه تعالى ، فأبت له تلك الهمة العالية أن يتعلق منها

---

(١) أى أئمة الطريق أمثال أبى سليمان الدارانى وسهل بن عبد الله التسترى .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٣٩) .

(٣) الصواعق المرسلة (٣ / ٩٤٤) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٤١) .

(٥) مسلم (٤٨٩ / ٢٢٦) فى الصلاة ، باب : فضل السجود والحث عليه ، وأبو داود (١٣٢٠) فى الصلاة ، باب: وقت قيام النبى ﷺ من الليل ، والنسائى (١١٣٨) فى التطبيق ، باب فضل السجود ، وأحمد ٤ / ٥٩ .

بشئ مما سوى الله ومحابه ، وعرض عليه أن يتصرف بالملك فأباه ، واختار التصرف بالعبودية المحضة ، فلا إله إلا الله خالق هذه الهمة ، وخالق نفس تحملها ، وخالق همم لا تعدو همم أخس الحيوانات (١) .

وأيضا

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : فى بعض الآثار الإلهية يقول الله تعالى : « إنى لا أنظر إلى كلام الحكيم ، وإنما أنظر إلى همته » .

قال : والعامة تقول : قيمة كل امرئ ما يحسن ،والخاصة تقول قيمة كل امرئ ما يطلب ، يريد : أن قيمة المرء همته ومطلبه » (٢) .

وأيضا

من لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر فإنه لا وقوف فى الطبيعة ولا فى السير ، بل إما إلى قدام وإما إلى وراء ، فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه ، ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه (٣) .

محاسبة النفس

هذا سيد أهل الأذواق والمواجيد والكشوف والأحوال من هذه الأمة ، المحدث المكاشف عمر رضي الله عنه لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شىء من أمور الدين حتى ، ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشىء لم يلتفت إلى ذوقه ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول : « ولو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ، ويقول : « أيها الناس ، رجل أخطأ ، وامرأة أصابت » ، فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضي الله عنه ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة (٤) .

وأيضا

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى

---

(١) مدارج السالكين (٣/١٤٧) .
(٢) مدارج السالكين (٣/٣) .
(٣) مدارج السالكين (١/٤٧٧) .
(٤) مدارج السالكين (١/٤٩٦) .

نفسك فتكون لها أشد مقتًا [١] .

وأيضا

قال الحسن رضي الله عنه : إن المؤمن ـ بالله ـ لا تراه إلا قائماً على نفسه : ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكله ؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا ؟ ما أردت بهذا ؟ مالى ولهذا ؟ والله لا أعود إلى هذا ، ونحو هذا من الكلام [٢] .

وأيضا

كلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت عند الله ، وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قَلَّت وصغرت عند الله وسيئاتك بالعكس . ومن عرف الله وحقه وما ينبغى لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده وصغرت جداء فى عينه ، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه [٣] .

أعز الخَلق

يذكر عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد ، وفقيه صوفى، وغنى متواضع ، وفقير شاكر ، وشريف سنى .

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ لا ينبغى لك هذا . فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت نفسى نخوة فأردت أن أكسرها .

وولى أبو هريرة رضي الله عنه إمارة مرة ، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره ، ويقول : طرقوا للأمير .

وركب زيد بن ثابت مرة ، فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه ، فقال : مه يا ابن عم رسول الله ؛ فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا ، فقال : أرنى يدك . فأخرجها إليه فقبلها . فقال : هكذا أمرنا نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٣٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥١٠) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٦٥) .

وقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الصحابة رضى الله عنهم حللاً ، فبعث إلى معاذ حلة مثمنة فباعها ، واشترى بثمنها ستة أعبدٍ وأعتقهم . فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه بعد ذلك حلة دونها . فعاتبه معاذ ، فقال عمر : لأنك بعت الأولى . فقال معاذ : وما عليك؟ ادفع لى نصيبى ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك . فقال عمر رضي الله عنه : رأسى بين يديك . وقد يرفق الشاب بالشيخ .

ومر الحسن على صبيان معهم كسر خبز ، فاستضافوه . فنزل فأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله . فأطعمهم وكساهم وقال : اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعمونى ، ونحن نجد أكثر منه .

ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه عير بلالا رضي الله عنه بسواده،ثم ندم فألقى بنفسه . فحلف : لا رَفَعْتُ رأسى حتى يطأ بلال خدى بقدمه ، فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال .

وقال رجاء بن حيوية : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو يخطب ـ باثنى عشر درهماً ، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة .

ورأى محمد بن واسع ابناً له يمشى مشية منكرة . فقال : تدرى بكم شريت أمك ؟ بثلاثمائة درهم وأبوك ـ لا كثَّر الله فى المسلمين مثله ـ أنا ـ وأنت تمشى هذه المشية ؟ (١).

أعقل الخَلْق

إن أعقل الخلق على الإطلاق الرسل ، وأتباعهم بعدهم أعقل الأمم ، وأهل الكتاب والشرائع الكبار أعقلهم ، وأعقل هؤلاء المسلمون ، وأعقل المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان ، وأهل السنة والحديث أعقل الأمة بعدهم على الإطلاق (٢) .

البصيرة

من له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه فى أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى عين ، ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته ـ سبحانه ـ وربوبيته وعزته وحكمته ،وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك ، ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه،فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره ،وهذا يقين

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٠) .

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥١٤) .

الإيمان، وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب .

وصاحب هذا المقام من الإيمان : يستحيل إصراره على السيئات وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه ، وهذا من أحب الخلق إلى الله [١] .

وأيضا

إنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام « البصيرة » ؛ لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع والغضب على من أضاعه ، فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه وذلك عين البصيرة ، فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال معم لعين البصيرة، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله ـ إذا ضيعت ومحارمه إذا انتهكت ـ مع العين البصيرة [٢] .

لسان العلم

الكلام بلسان العلم أوسع من الكلام بلسان الذوق ، وأقرب إلى الحجة والبرهان [٢].

الاطلاع والقراءة

يا أيها القارئ له والناظر فيه [٣] ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة المسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه ، وعلى مؤلفة غرمه ، ولك ثمرته وعليه عائدته ، فإن عدم منك حمدا وشكرا فلا يعدم منك عذرا ، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح ، وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد ، وولى الملامة الرجلا [٤] .

المفلس من العلم

إن كل من اعتقد عقيدة وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة وجزم بما اعتقده ، تجلت له صورة معتقده فى عالم نفسه ، فيظن ذلك كشفاً صحيحاً . وإن كان صادقاً فى طلبه

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٩٧) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٠) .
(٣) يقصد : كتاب طريق الهجرتين .
(٤) طريق الهجرتين (٧ ، ٨) .

وحبه لما اعتقده : كان له فيه حال وتأثير بحسبه ، فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير ملىء به [١] .

ميزان المعرفة الصحيحة

العلم الصحيح والعمل المستقيم : هما ميزان المعرفة الصحيحة والحال الصحيح ، وهما كالبدنين لروحيهما [٢] .

نشر العلم

من كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر ، ولا يبادر إلى الإنكار . فكم بين الهدهد ونبى الله سليمان ؟ وهو يقول له : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢][٣].

القدح فى العلم

قال بعضهم : متى رأيت الصوفى الفقير يقدح فى العلم ، فاتهمه على الإسلام [٤] .

تحصيل العلم

قد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشبة ، ومالت إليه العبادات ، واختلفت عليه الأقوال [٥] .

العلم والعلماء

قال الحسن البصرى : ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت [٦] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٠٠)
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٥٢) .
(٤) مدارج السالكين (٢/ ٣٧٢) .
(٥) مدارج السالكين (٢/ ٦) .
(٦) مدارج السالكين (١/ ٤٤١) .

obeikandl.com

اقتضاء العلم العمل

النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به [١] .

وأيضا

قال بعض السلف : إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى : فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به ،وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه [٢] .

آفة العلوم

لا عبرة بجدل من قل فهمه ، وفتح عليه باب الشك والتشكيك فهؤلاء هم آفة العلوم وبلية الأذهان والفهوم [٣] .

فساد العالم

قال سفيان بن عيينة : من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه [٤] .

قيام الليل

قال محمد بن ابراهيم : رأيت الجنيد فى النوم ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم ، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها فى الأسحار . وتذاكروا بين يديه أهل المعرفة وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعدما وصلوا إليه فقال : الجنيد : العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك [٥] .

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤٦) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٤٧) .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٧) .
(٤) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤) .
(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٢١) .

obeikandl.com

وأيضا

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لو لا ثلاث لما أحببت البقاء : لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله ، ومكابدة الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطيب الكلام كما ينتقى أطيب الثمر » .

يريد رضي الله عنه : الجهاد والصلاة والعلم النافع وهذه درجات الفضائل . وأهلها هم أهل الزلفى والدرجات العليا .

قال معاذ رضي الله عنه عند موته : « اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء لجرى الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لنكح الأزواج ، ولكن لظمأ الهواجر ، ومكابدة الليل ، ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر » (١) .

وأيضا

كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة ، فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات ، وأين هذا من هذا ؟ (٢) .

قيمة الوقت

إن الواردات سريعة الزوال ، تمر أسرع من السحاب وينقضى الوقت بما فيه فلا يعود عليك منه إلا أثره وحكمه فاختر لنفسك ما يعود عليك من وقتك،فإنه عائد عليك لا محالة. لهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة]، ويقال للأشقياء ﴿ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر](٣) .

وأيضا

قال الشافعى رضي الله عنه :صحبت الصوفية ، فما انتفعت منهم إلا بكلمتين ؛سمعتهم يقولون : الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨١) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٩٦) .
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٥٠) .

بالباطل [١] .

الاجتهاد والتأويل

التأويل والاجتهاد من باب المعارض فى حق بعض الناس يدفع به عنه العقوبة كما يدفع بالتوبة والحسنات الماحية ،وهذا إنما هو لمن استفرغ وسعه فى طلب الحق ما استطاع [٢] .

وأيضا

الذين حضروا هذا اللهو [٣] متأولين من أهل الصلاح والزهد والخير، غمرت حسناتهم ما كان فيهم من السيئات ،والخطأ من هذا ومن غيره ، وهذا سبيل كل صالح فى هذه الأمة فى خطئه وزلله ، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾** ﴾ [الزمر] .

وهذا كالمتأولين من صالحى الكوفيين فى النبيذ المسكر وان كان خمرا ،وكذلك المتأولون من صالحى أهل مكة فى المتعة والصرف وإن كان سبيلهما سبيل الزنا والربا ،وهم من أبعد الناس عن ذلك ،وكذلك المتأولون فى حل بعض ما حرمه الشارع من الأطعمة من أهل المدينة وغيرهم ،وكذلك المتأولون فى مسألة حشوش النساء،وكذلك المتأولون فى القتال فى الفتنة إلى أمثال ذلك مما تأول فيه قوم من أهل العلم والدين ، من مطعوم أو مشروب أو منكوح أو مسموع أو عقد ونحو ذلك ، مما قد علم أن الله ورسوله حرمه لم يجز اتباعهم فى ذلك ،وإن كان مغفوراً لهم أو من السعى الذى يؤجرون عليه لاجتهادهم أجراً واحداً ، فالرب ـ سبحانه ـ يمحو السيئات بالحسنات ،ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات [٤] .

التقليد

إن المقلد المتعصب لا يترك من قلده ولو جاءته كل آية ، وأن طالب الدليل لا يأتم

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٢٩) .
(٢) الكلام على مسألة السماع (٣٠٣) .
(٣) اى السماع .
(٤) الكلام على مسألة السماع (٣٢٧) .

بسواه ، ولا يُحكم إلا إياه ، ولكل من الناس مورد لا يتعداه وسبيل لا يتخطاه ، ولقد عذر من حمل ما انتهت إليه قواه ، وسعى إلى حيث انتهت إليه خطاه [١] .

وأيضا

هذا منتهى أقدام الطائفتين فى هذه المسألة [٢] الضيقة المعترك الوعرة المسلك التى يتجاذب أعنة أدلتها الفرسان ، وتتضاءل لدى صولتها شجاعة الشجعان ، وإنما نبهنا على مأخذها وأدلتها ليعلم الغر الذى بضاعته من العلم مزجاة أن هناك شيئا آخر وراء ما عنده ، وأنه إذا كان ممن قصر فى العلم باعه فضعف خلف الدليل ،وتقاصر عن جنى ثماره ذراعه، فليعذر من شمر عن ساق عزمه ، وحام حول آثار رسول الله ﷺ وتحكيمها والتحاكم إليها بكل همة ،وإن كان غير عاذر لمنازعه فى قصوره ورغبته عن هذا الشأن البعيد فليعذر منازعه فى رغبته عما ارتضاه لنفسه من محض التقليد ، ولينظر مع نفسه أيهما هو المعذور ، وأى السعيين أحق بأن يكون هو السعى المشكور ، والله المستعان وعليه التكلان ، وهو الموفق للصواب الفاتح لمن أم بابه طالبا لمرضاته من الخير كل باب [٣] .

وأيضا

ليس التحاكم فى هذه المسألة [٤] إلى مقلد متعصب ولا هياب للجمهور ، ولا مستوحش من التفرد إذا كان الصواب فى جانبه ، وإنما التحاكم فيها إلى راسخ فى العلم قد طال فيه باعه ، ورحب بنيله ذراعه ، وفرق بين الشبهة والدليل ، وتلقى الأحكام من نفس مشكاة الرسول ، وعرف المراتب وقام فيها بالواجب ، وباشر قلبه أسرار الشريعة وحكمها الباهرة، وما تضمنته من المصالح الباطنة والظاهرة ، وخاض فى مثل هذه المضايق لججها ، واستوفى من الجانبين حججها ، والله المستعان ، وعليه التكلان [٥] .

غض البصر

قيل : الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده [٦] .

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٢٢١) .
(٢) أى مسألة : هل يقع الطلاق البدعى أم لا ؟
(٣) زاد المعاد (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) .
(٤) أى مسألة : وقوع الثلاث طلقات بكلمة واحدة .
(٥) زاد المعاد (٥/ ٢٩٦) .
(٦) الداء والدواء (٢٦٨) .

وأيضا

قد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات [١] .

الطاعة

كل من استعان به [٢] على أمره وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته قاطعا له عنه ولابد [٣] .

المعاصى بريد الكفر

قال بعض السلف « المعاصى بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت » [٤] .

الفرح بالمعصية

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها ، وعظم خطرها . ففرحه بها غطى عليه ذلك كله ، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها ، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدًا ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتى خلى قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فليتهم إيمانه ، وليبك على موت قلبه ، فإنه لو كان حيًا لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام .

وهذا النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها وهى موضع مخوف جداً ، ومترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره وتشمير للجد فى استدراكه [٥] .

---

(١) الداء والدواء (٢٦٩) .
(٢) أى : بالله عز وجل .
(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٩) .
(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٢٥)
(٥) مدارج السالكين (١/ ٧٩) .

obeikandl.com

فضل الطاعات والمصائب

الطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات [١] .

عقوبة السيئة

مِنْ عقوبة السيئة ، السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها [١] .

أنواع المعاصى

المعاصى ثلاثة أنواع : نوع عليه حد مقدر فلا يجمع بينه وبين التعزير ، ونوع لاحد فيه ولا كفارة فهذا يردع فيه بالتعزير ، ونوع فيه كفارة ولاحد فيه كالوطء فى الإحرام والصيام . فهل يجمع فيه بين الكفارة والتعزير ؟ على قولين للعلماء وهما وجهان لأصحاب أحمد، والقصاص يجرى مجرى الحد فلا يجمع بينه وبين التعزير [٣] .

آثار الطاعة والمعصية

مَنْ له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد فى جوه ونباته وحيوانه، وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه ، ولم تزل أعمال بنى آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام ، والأمراض والأسقام ، والطواعين ، والقحوط ، والجروب ، وسلب بركات الأرض وثمارها ، ونباتها، وسلب منافعها ، أو نقصانها أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا .

فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى : ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾ [الروم : ٤١] ، ونزل هذه الآية على أحوال العالم ، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت فى الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات آخر متلازمة ، بعضها آخذ برقاب بعض ، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا ، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل فى أغذيتهم

---

(١) عدة الصابرين (١١٥) .
(٢) مدارج السالكين (١/ ١٨٤)
(٣) زاد المعاد (٥ / ٢١) .

وفواكههم ، وأهويتهم ومياههم ، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ،ما هو موجب أعمالهم ، وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هى اليوم،كما كانت البركة فيها أعظم . وقد روى الإمام أحمد بإسناده : أنه وجد فى خزائن بعض بنى أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل . وهذه القصة ، ذكرها فى « مسنده » على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السالفة ، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ، حكمًا قسطًا ، وقضاء عدلاً ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا بقوله فى الطاعون : « إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل»[1] ، وكذلك سلط الله ـ سبحانه وتعالى ـ الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام ، ثم أبقى فى العالم منها بقية فى تلك الأيام ، وفى نظيرها عظة وعبرة .

وقد جعل الله ـ سبحانه ـ أعمال البر والفاجر مقتضيات لآثارها فى هذا العالم اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغيث من السماء ، والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس فى المكاييل والموازين ، وتعدى القوى على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا ، ولا يعطفون إن استعطفوا ، وهم فى الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت فى صور ولاتهم ، فإن الله ـ سبحانه ـ بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم فى قوالب وصور تناسبها ، فتارة بقحط وجدب ، وتاره بعدو ، وتارة بولاة جائرين ، وتاره بأمراض عامة ، وتاره بهموم وآلام وغموم تحصرها نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم توزهم إلى أسباب العذاب أزًا ، لتحق عليهم الكلمة ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له ، والعاقل يسير بصيرته بين أقطار العالم ، فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون ، وإلى دار البوار صائرون ، والله بالغ أمره ، لا معقب لحكمه، ولاراد لأمره ، وبالله التوفيق [2] .

---

(١) البخارى (٣٤٧٣) فى أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) ، ومسلم (٢٢١٨ / ٩٢) فى السلام ، باب : الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها ، ومالك ٢ / ٨٩٦ (٢٣) فى الجامع ، باب : ما جاء فى الطاعون ،وشرح السنة للبغوى ٥ / ٢٥٤ .

(٢) زاد المعاد (٤ / ٣٦٢ ـ ٣٦٤) .

الغناء

من مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قَلَّ نصيبه من العلم والعقل والدِّين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والباطلين : سماع المكاء والتَّصدية ، والغناء بالآلات المحرَّمة ، الذى يَصُدُّ القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان . فهو قرآن الشيطان ، والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رُقْيَة اللواط والزِّنا ، وبه يَنالُ العاشق الفاسق غاية المنى ، كاد به الشيطان النفوس المبطلة ، وحَسَّنه لها مكرًا منه وغرورا ، وأوحى إليها الشبَه الباطلة على حُسْنه فقبلتْ وَحْيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا ، فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خَشَعَتْ منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت انصبابة واحدةً إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النَّشْوان ، وتكسَّرُوا فى حركاتهم ورَقصهم ،أرأيت تكسُّر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك ، وقد خالطَ خمارُه النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيَّا الكؤوس ، فلغير الله ، بل للشيطان ، قلوبٌ هناك تُمَزَّق ، وأثوابٌ تُشَقَّق . وأموال فى غير طاعة الله تُنْفَق ، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله ، وبلغ الشيطان منهم أُمنيته وأَمَله ، واستفزَّهم بصوته وحَيْله ، وأجْلَب عليهم بِرجْله وخيلِه وخَزَ فى صدورهم وَخزًا ، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا ، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدَار ، وتارة كالدباب ترقصُ وسيط الديار .

فيارحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، وياسوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام ، بالدين يزعمون أنهم خواصٍ الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربا، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا . مزامير الشيطان أحبُّ إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرَّك له ساكنا ، ولا أزعج له قاطنًا ، ولا أثار فيه وَجْدًا . ولا قدح فيه من لواعجِ الشوق إلى الله زَنْدًا ، حتى إذا تُلى عليه قرآنُ الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت .

فيا أيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان ، عند سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد ، عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السَّنِيَّات ، عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل امرئ يَصْبوا إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكله ، والجنْسِيَّةُ علَّةُ الضَّمِّ قدرا وشرعا ، والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعا ، فمن أين هذا الإخاء والنسب ؟ لولا التعلقُ من الشيطان بأقوى

سبب ، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللا ؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾[1] [الكهف] .

المعازف

الذى شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب : أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر ، والله المستعان [2] .

السماع وآفاته

قال عارف القوم وسيدهم بلا مدافع الشيخ عبد القادر الكيلانى بعد ذكر آداب السماع: «ولو صدق القوم فى قصدهم وتجردهم وتصوفهم لما انزعجوا فى قلوبهم وجوارحهم بغير سماع كتاب الله عز وجل ، إذ هو كلام محبوبهم وصفته ، وفيه ذكره وذكرهم، وذكر الأولين والآخرين، والماضين والغابرين ،والمحب والمحبوب ،والمريد والمراد، وعتاب المدعين لمحبته ولومهم وغير ذلك ، فلما اختل قصدهم وصدقهم وظهرت دعواهم من غير بينة وزورهم وقيامهم مع الرسم والعادة من غير غريزة باطنة وصدق السريرة والمعرفة والمكاشفة والعلوم الغريبة ، والاطلاع على الأسرار ، والقرب والأنس ، والوصول إلى المحبوب ، والسماع الحقيقى وهو القرآن والحديث ، والكلام الذى سنه الله مع العلماء به والخلص من الأولياء والأبدال والأعيان ، وخلت بواطنهم من ذلك كله ، وقفوا مع القوال والأبيات والأشعار التى تثير الطباع ، وتهيج ثائرة العشق بالطباع لا بالقلوب والأرواح » ، فهذا كلام من خير السماع وعلم ما فيه من الآفات [3] .

وأيضا

تزندق بالسماع طوائف لا يحصيهم إلا الله ، كما تزندق بالكلام ، ولم يكن أضر على الأمة من هاتين الطائفتين أهل السماع وأهل الكلام ، وقد ذم الشافعى رحمه الله الطائفتين، وبالغ فى ذمهم وشهد على إحداهما بأن طريقتهم من إحداث الزنادقة ، وحكم على الأخرى بأن تضرب بالجريد والنعال ويطاف بها فى القبائل والعشائر لعلمه ﷺ بالضرر

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ٢٢٤ ، ٢٢٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٠٠) .
(٣) الكلام على مسألة السماع (١٥٠) .

الداخل على الأمة والدين من الطائفتين ، وتلغى شهادة هذا الذائق للسماع بأن من أصغى إليه بنفس تزندق (١) .

وأيضا

ليس العجب من جاهل قلبه فى غطاد عن العلم لا يفرق بين ما فعل الرسول وما يفعله هؤلاء ، ولكن العجب ممن نصب نفسه للعلم والتأليف ، ويعد نفسه من الأئمة الهداة المرشدين لا يفرق بين هذا وهذا ، ويحتج على جواز الاستماع على الوجه المذكور بسماع صوت الزمارة وسماع غناء الجويريتين ، فهلا فعلتم مثل فعل الجويريات ، وأخذتم الدفوف وضربتهم بها فى الطرقات وغنيتم بغنائهن ، واقتصرتم على ذلك ولم تضموا إليه سائر المحرمات والقبائح ؟ فلو فعلتم ذلك مع قبحه لكان أسهل وأقل إثما وأدنى إلى الخلاص(٢).

وأيضا

مجرد طيب القلب ليس دليلا على أنه إنما طاب بما يحبه الله ويرضاه ، بل قد يطيب بما لا يحبه الله ويرضاه ، بل بما يكرهه ويسخطه لا سيما القلوب التى أشربت حب الأصوات الملحنة ، فإنها تطيب بما ينبت النفاق فى القلب (٣) .

الغنى والفقر

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به ، كما فى المسند عنه ﷺ قال : « يقول الله تعالى : إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى له ثانياً ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » (٤) . فأخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة ، وإقامة حق عباده بالزكاة ، لا للاستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام . فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين ، فإن الغرض والحكمة التى أنزل لها كان التراب أولى ، فرجع هو والجوف الذى امتلأ به بما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره ،

(١) الكلام على مسألة السماع (٩٩٩) .
(٢) الكلام على مسألة السماع (٤١٦) .
(٣) الكلام على مسألة السماع (٤٤٥) .
(٤) أحمد ٥/٢١٩ .

وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك . فعطل الجاهل بالله ، وبأمر الله ، وبتوحيد الله ، وبأسمائه وصفاته ، جوفه عما خلق له ، وملأه بمحبة المال الفانى الذاهب الذى هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس ، وجمعه والاستكثار منه . ومع ذلك فلم يمتلئ ، بل ازداد فقراً وحرصاً إلى أن امتلأ جوفه بالتراب الذى خلق منه ، فرجع إلى مادته الترابية التى خلق منها هو وماله ، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذى بهما كماله وفلاحه وسعادته فى معاشه ومعاده .

فالمال إن لم ينفع صاحبه ضره ولابد ، وكذلك العلم والملك والقدرة ، كل ذلك إن لم ينفعه ضره ، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها إليها فى الخير والشر ، فإن عطلت عن التوسل بها إلى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها إلى أضدادها ، فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة ، وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة ، فخسر الدنيا والآخرة ، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ، ولو جعلها كذلك لكان خاسراً ، لكنه جعلها وسائل إلى ضد ما جعلت له، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة إلى أعظم الآلام وأدوائها .

فالأقسام أربعة لا خامس لها :

أحدهما : معطل الأسباب معرض عنها .

الثانى : مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها .

الثالث : متوصل بها إلى ما يضره ولا ينفعه فى معاشه ومعاده ـ فهؤلاء الثلاثة فى الخسران .

الرابع : متوصل بها إلى ما ينفعه فى معاشه ومعاده وهو الرابح ، قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾** ﴾ [هود] .

وقد أشكل فهم هذه الآية على كثير من الناس ؛ حيث فهموا منها أن من كان له إرادة فى الدنيا وزينتها فله هذا الوعيد ، ثم اختلفوا فى معناها ، فقالت طائفة ـ منهم ابن عباس: من كان يريد تعجيل الدنيا ، فلا يؤمن بالبعث ولا بالثواب ولا بالعقاب . قالوا : والآية فى الكفار خاصة على قول ابن عباس .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه وسَدَمه [١] ونبته وطلبه ، جازاه الله فى الدنيا

(١) السدم : الفهم ، أو مع ندم ، أو الغيظ مع حزن . (القاموس) .

بحسناته ، ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها ، وأما المؤمن فيجزى فى الدنيا بحسناته ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال هؤلاء : فالآية فى الكفار بدليل قوله : ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود] . قالوا : المؤمن من يريد الدنيا والآخرة، فأما من كانت إرادته مقصورة على الدنيا فليس بمؤمن .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فى رواية أبى صالح عنه : نزلت فى أهل القبلة .

وقال مجاهد : هم أهل الرياء

وقال الضحاك : من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله فى الدنيا .

واختار الفراء هذا القول وقال : من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس .

وهذا القول أرجح ، ومعنى الآية على هذا : من كان يريد بعمله الحياة الدنيا وزينتها. وهذا لا يكون مؤمناً ؛ فإن العاصى والفاسق ولو بالغا فى المعصية والفسق فإيمانهما يحملهما على أن يعملا أعمال البر لله ، فيريدان بأعمال البر وجه الله وإن عملا بمعصيته . فأما من لم يرد بعمله وجه اللّه ، وإنما أراد به الدنيا وزينتها ، فهذا لا يدخل فى دائرة أهل الإيمان .

وهذا هو الذى فهمه معاوية من الآية ، واستشهد بها على حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم فى صحيحه فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة : القارىء الذى قرأ القرآن ليقال فلان قارئ ، والمتصدق الذى أنفق أمواله ليقال فلان جواد ، والغازى الذى قتل فى الجهاد ليقال هو جرىء (١) (٢) .

وأيضا

إن الغنى وصف ذاتى للرب ، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتى للعبد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ والفقر لى وصف ذات لازم أبداً ، كما الغنى أبداً وصف لله ذاتى (٣) .

---

(١) مسلم (١٩٠٥ / ١٥٢) فى الإمارة ، باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار .

(٢) عدة الصابرين (٢٠٣ ـ ٢٠٥) . (٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤٠) .

البدعة

قال بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها [١] .

وأيضا

قال بعضهم : تزوجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال ، فاشتغل الزوجان بالعرس فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام ، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى[٢] .

وأيضا

قال شيخنا : تَزَوَّجَتِ الحقيقة الكافرة بالبدعة الفاجرة ، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة [٣] .

السنة والبدعة

إن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة ولا تقوم لها ، وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمه كل ضلالة ، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس ، ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة إلا المتابعة والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجأ إلى الله والهجرة إلى رسوله بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » [٤] ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة ، والله المستعان [٥] .

---

(١) الداء والدواء (٢٥٥) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٢٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٢٢٣) .
(٤) البخارى (٦٦٨٩) فى الأيمان والنذور ، باب : النية فى الأيمان ، ومسلم (١٩٠٧ / ١٥٥) فى الإمارة ، باب : قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية » وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الاعمال .
(٥) مدارج السالكين (١ / ٣٧٤) .

أقسام الصوفية

قد قسم بعضهم الصوفية أربعة أقسام : أصحاب السوابق ، وأصحاب العواقب ، وأصحاب الوقت ، وأصحاب الحق . قال :

فأما أصحاب السوابق : فقلوبهم أبداً فيما سبق لهم من الله ؛ لعلمهم أن الحكم الأزلى لا يتغير باكتساب العبد . ويقولون : من أقصته السوابق لم تدنه الوسائل . ففكرهم فى هذا أبداً ، ومع ذلك : فهم يجدون فى القيام بالأوامر واجتناب النواهى ، والتقرب إلى الله بأنواع القرب ، غير واثقين بها ولا ملتفتين إليها ، ويقول قائلهم :

من أيـن أرضـيك إلا أن توفقنـى ... هيهات هيهات ما التوفيق من قبلى

إن لم يكن لى فى المقدور سابقة ... فليس ينفـع ما قدمـت مـن عمـلى

وأما أصحاب العواقب : فهم متفكرون فيما يختم به أمرهم ، فإن الأمور بأواخرها ، والأعمال بخواتيمها ، والعاقبة مستورة ، كما قيل :

لا يغـرنك صفـا الأوقات ... فإن تحتها غوامض الآفات

فكم من ربيع نورت أشجاره ، وتفتحت أزهاره ، وزهت ثماره ، لم يلبث أن أصابته جائحة سماوية ، فصار كما قال الله عز وجل : **﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [يونس : ٢٤].

فكم من مريد كبا به جواد عزمه ... فخر صريعاً لليدين والفم

وقيل لبعضهم ـ وقد شوهد منه خلاف ما كان يعهد عليه : ما الذى أصابك ؟

فقال : حجاب وقع ، وأنشد :

أحسنت ظنك بالايام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتى به القدر

وسالمتك الليالـى فاغتررت بهـا ... وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ليس العجب ممن هلك كيف هلك ؟ إنما العجب ممن نجا كيف نجا ؟.

تعجـــبين مـــن سقـــمى ... صـــحتى هـــى العجـــب !!

الناكصون على أعقابهم أضعاف أضعاف من اقتحم العقبة :

خذ مـن الألــف واحـــدا ... واطــرح الكــل مـــن بعـــده

وأما أصحاب الوقت : فلم يشتغلوا بالسوابق ولا بالعواقب ، بل اشتغلوا بمراعاة الوقت وما يلزمهم من أحكامه . وقالوا : العارف ابن وقته ، لا ماضى له ولا مستقبل .

ورأى بعضهم الصديق رضي الله عنه فى منامه ، فقال له : أوصنى . فقال له : كن ابن وقتك .

وأما أصحاب الحق : فهم مع صاحب الوقت والزمان ومالكهما ومدبرهما ، مأخوذون بشهوده عن مشاهدة الأوقات ، لا يتفرغون لمراعاة وقت ولا زمان كما قيل :

لست أدرى : أطال ليلى أم لا ... كيف يدرى بذاك من يتقلى ؟

لو تفرغت لاستطالة ليلى ... ولرعى النجوم كنت مخلى

إن للعاشقين عن قصر الليـ ... ـل وعن طوله من العشق شغلاً

قال الجنيد : دخلت على السرى يوماً فقلت له : كيف أصبحت ؟ فأنشأ يقول :

ما فى النهار ولا فى الليل لى فرج ... فلا أبالى أطال الليل أم قصرا

ثم قال : ليس عند ربكم ليل ولا نهار . يشير إلى أنه غير متطلع إلى الأوقات ، بل هو مع الذى يقدر الليل والنهار [١] .

عبادة الصوفية

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يحكى عن بعض العارفين أنه قال: الناس يعبدون الله ، والصوفية يعبدون أنفسهم .

أراد أنهم واقفون مع مرادهم من الله ، لا مع مراد الله منهم ، وهذا عين عبادة النفس. فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل ، فإنه محك وميزان ، والله المستعان [٢] .

الكِبْر

سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : التكبر شر من الشرك ، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى والمشرك يعبد الله وغيره [٣] .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ١٣٠) .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٥٨) .

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٣٢) .

وأيضا

لولا مانع الكبر والحسد ، والرياسة والمعاداة فى الكفار ، لكانت الرسل أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولما زال هذا المانع من قلوب أتباعهم ، كانت محبتهم لهم فوق محبة الأنفس والأهل والمال [١] .

علاج الكبرياء

كثيرا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ تدفع الرياء ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٤] تدفع الكبرياء [٢] .

العُجْب

لا ريب أن هذا الذنب [٣] خير عند الله وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المان بها وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على ما فى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ويغضوا له، ويجد فى قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً ؛ ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه ويعرف له حقه ، متطلبا لعيبه فى قالب حمية لله وغضب له ، وإذا قام بمن يعظمه ويحترمه ويخضع له من الذنوب أضعاف ما قام بهذا ، فتح له باب المعازير والرجاء وأغمض عنه عينه وسمعه وكف لسانه وقلبه وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود ، وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه .

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه فى ذنب يكسره به ، ويعرفه قدره ، ويكفى به عباده وشره ، وينكسر به رأسه ، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده ، فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة ، ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال [٤] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٧١) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٤) .
(٣) أى : الذنب المقترن بالتوبة .
(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٩٩) .

obeikandl.com

تلازم الظاهر والباطن

فى الغالب يكون بين جمال الظاهر والباطن تلازم ، وبين قبح الظاهر والباطن تلازم ، فإن لكل باطن عنوانا من الظاهر يدل عليه ويعرف به ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ بين الخلق والخلق والظاهر والباطن ارتباطًا والتئامًا وتناسبًا ، وم هاهنا تكلم الناس فى الفراسة، واستنبطوا علمها وهو من ألطف العلوم وأدقها ، وأصله معرفة المشاكله والمناسبة والآخرة التى عقدها الله سبحانه بين المتشاكلين ، ومن لم يكن له نصيب منها لم يكد ينتفع بنفسه ولا بغيره .

وأنت إذا تأملت العالم فقل أن ترى خلقا مشوها إلا وثم خلق قبيح وفعل يناسبه ، وقوله يناسبه ، اللهم إلا لمعارض من تأدب وتعلم يخرجه من مقتضى طبعه ، كما يحصل لكثير من الحيوان البهيم من التعليم والتأديب والتمرين ما يخرجه عن مقتضى طباعه ، وقل أن ترى خلقا جميلا إلا وثم خلق وفعل وقول يناسبه ، اللهم إلا لمعارض سوء أخرجه عن مقتضى طبعه، كالطفل الذى ولد على الفطرة فلو خلى لما نشأ إلا على فطرة الإسلام ، لكن معارض الكفر أخرجه عن فطرته ، والنبى ﷺ ذكر « إن الله جميل يجب الجمال »(١) للفرق بين الكبر الذى يبغضه الله وأنه ليس من الجمال ، وبين الجمال الذى يحبه ، فإنه لما قال : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » قالوا : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنًا أفمن الكبر ذلك ، فقال : « لا إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »(٢) فأخبر أن تحسين الثوب والنعل قد يكون من الجمال الذى يحبه الله كما قال تعالى : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الاعراف : ٣١]، فإذا كان الظاهر جميلا والباطن جميلا أحبه الله ، وإذا كان الباطل جميلا والظاهر غير جميل لم يضره عند الله شيئًا وإن كان كاسدًا عند الناس ، فإنه عند الله عزيز غال ، فإذا كان للعبد صوت حسن ولو من أحسن الأصوات وبذا بصوته واستعمله فى الغناء أبغض الله ورسوله كما يبغض الصورة المستعملة فى الفواحش ولو كانت من أجمل الصور وأحسنها(٣) .

(١ ، ٢) مسلم (٩١ / ١٤٧) فى الإيمان ، باب : تحريم الكبر وبيانه .

(٣) الكلام (٣٧٤ ـ ٣٧٦) .

وأيضا

قال بعض العارفين : حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن [١] .

ذنب أفضل من حسنة !

إذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمته ، حتى يقول عدو الله : يا ليتنى تركته ولم أوقعه.

وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة ويدخل بها النار . قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفا منه مشفقا وجلا باكيا نادما مستحيا من ربه تعالى ، ناكس الرأس بين يديه ، منكسر القلب له ، فيكون ذلك الذنب سبب سعادة العبد وفلاحه حتى يكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التى بها سعادة العبد وفلاحه ، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة .

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ، ويتكبر بها ، ويرى نفسه ، ويعجب بها ، ويستطيل بها ، ويقول : فعلت ، وفعلت ، فيورثه ذلك من العجب والكبر ، والفخر والاستطالة ، ما يكون سبب هلاكه . فإذا أراد الله بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به، ويذل به عنقه ، ويصغر به نفسه عنده ، وان أراد به غير ذلك ، خلاه وعجبه وكبره ، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه [٢] .

الموت

وروى أنه لما حضرت الخطيئة الوفاة قال :

لكل جديد لذة غير أننى وجدت جديد الموت غير لذيذ [٣]

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٢١) .
(٢) الوابل الصيب (٨) .
(٣) بدائع الفوائد (٤ / ٢١١) .

ذم الكلام

ذكر قول الإمام فخر الدين الرازى[١] فى آخر كتبه ـ وهو كتاب « أقسام اللذات » الذى صنفه فى آخر عمره وهو كتاب مفيد :

ذكر فيه أقسام اللذات وبين أنها ثلاثة : الحسية كالأكل والشرب والنكاح واللباس واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والأمر والنهى والترفع ونحوها . واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف وتكلم عن كل واحد من هذه الأقسام إلى أن قال : وأما اللذة العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها والتعلق بها فلهذا السبب نقول ياليتنا بقينا على العدم الأول وليتنا ما شهدنا هذا العالم وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن ، وفى هذا المعنى قلت :

نهايـة إقـدام العقـول عقـال ... وأكثـر سعـى العالمين ضـلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصـل دنيانـا أذى ووبـال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجـال ودولـة ... فبادوا جميعًا مسرعـين وزالـوا
وكم من جبال قـد علت شرفاتها ... رجـال فزالوا والجبال جبـال

واعلم أنه بعد التوغل فى هذه المضايق والتعميق فى الاستكشاف عن أسرار هذه الحقائق رأيت الأصواب الأصلح فى هذا الباب طريقة القرآن العظيم ، والفرقان الكريم وهو ترك التعمق ، والاستدلال بأقسام السموات والأرضين على وجود رب العالمين ، ثم المبالغة فى التعظيم من غير خوض فى التفاصيل فاقرأ فى التنزيه قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [محمد : ٣٨]، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : : ١١]وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾ [الإخلاص] وقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه] ، واقرأ فى الإثبات قوله : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُه ﴾ [فاطر : ١٠] وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] وفى تنزيه عما لا ينبغى وقوله : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النساء : ٧٩] الآية وعلى هذا القانون فقس وختم الكتاب[٢].

---

(١) أى قوله فى إثبات الصفات ، والفوقية وعلو الله على عرشه .
(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٣٠٤ ـ ٣٠٦) .

مخالطة الخَلْق

حدثنى بعض أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال : كان فى بداية أمره يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس لقوة ما يرد عليه ، فتبعته يوما ، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم جعل يتمثل بقول الشاعر ـ وهو لمجنون ليلى فى قصيدته الطويلة :

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك النفس بالسر خاليًا

وصاحب هذه الحال : إن لم يرده الله سبحانه إلى الخلق بتثبيت وقوة ، وإلا فإنه لا صبر له على مخالطتهم (١).

طغيان النعمة

كثرة النعم تطغى العبد وتحمله على أن يصرفها فى وجوهها وغير وجوهها ، وهى تدعو إلى أن يتناول العبد بها ما حل وما لا يحل ، وأكثر المُنْعَم عليهم لا يقتصرون فى صرف النعمة على القدر الحلال ، بل يتعداه إلى غيره (٢) .

العوارض والمحن

قال لى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مرة : العوارض والمحن هى كالحر والبرد ، فإذا علم العبد أنه لابد منهما لم يغضب لورودهما، ولم يغتم لذلك ولم يحزن(٣) .

الوسطية

والعدل يحمله (٤) على اعتدال أخلاقه وتوسطه فيها بين طرفى الإفراط والتفريط ، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذى هو توسط بين الذل والقحة وعلى خلق الشجاعة الذى هو توسط بين الجبن والتهور على خلق الحلم الذى هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٣ / ٥٩) .
(٢) مدارج السالكين (٣ / ٣٤٣) .
(٣) مدارج السالكين (٣ / ٣٨٩) .
(٤) أى الشخص المتصف بالعدل .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٨) .

obeikandl.com

وسطية الإسلام

ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما إلى تفريط وإضاعة ، وإما إلى إفراط وغلو . ودين الله وسط بين الجافى عنه والغالى فيه كالوادى بين جبلين ، والهدى بين ضلالتين ، والوسط بين طرفين ذميمين ، فكما أن الجافى عن الأمر مضيع له ، فالغالى فيه مضيع له .. هذا بتقصيره عن الحد ، وهذا بتجاوزه الحد (١) .

غلبة الطبع

إن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية تغيير الأخلاق التى طبعت النفوس عليها ، وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها ولم يظفر أكثرهم بتبديلها ، لكن النفس اشتغلت بتلك الرياضات عن ظهور سلطانها ، فإذا جاء سلطان تلك الأخلاق وبرز كسر جيوش الرياضة وشتتها ، واستولى على مملكة الطبع (٢) .

بمَ يُدرك النعيم

أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم وأن من رافق الراحة فارق الراحة، وحصل على المشقة وقت الراحة فى دار الراحة ، فإن قدر التعب تكون الراحة .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكريم الكرائم
ويكبر فى عين الصغير صغيرها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم (٣)

الدعوى الكاذبة

إن الدعوى الصادقة تطفئ نور المعرفة ، فكيف بالكاذبة ؟ (٤) .

قبول العمل

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إذا لم تجد للعمل حلاوة

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٦) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣١١) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ١٦٦) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ١١٠) .

فى قلبك وانشراحا فاتهمه ، فإن الرب تعالى شكور ، يعنى أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله فى الدنيا من حلاوة يجدها فى قلبه ، وقوة انشراح وقرة عين ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول (١) .

آفات العمل

يعرض للعامل فى عمله ثلاث آفات : رؤيته ، وملاحظته ، وطلب العوض عليه ورضاه به وسكونه إليه (٢) .

آفات العبد

قال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه . ومن نظر إلى نفسه باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور (٣) .

العفو عن الخطأ

لو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة وأهدرت محاسنه ،لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها (٤) .

المرء على دين خليله

صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره، ولو أنه من الحيوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقا وأفعالا ، وتعود له تلك طباعا، ويتعذر ـ أو يتعسر ـ عليه الانتقال عنها .

وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين بخلطتهم أخلاقا وأفعالاً شريفة ، تصير له كالطبيعة ، فإن العوائد والمزاولات تعطى الملكات والأخلاق (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٦٨) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٩٢) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٩٤) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٩) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٤٨٨) .

المريد

قال أبو على الدقاق : المريد متحمل والمراد محمول ، وقد كان موسى ﷺ مريداً إذ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه : ٢٥]، ونبيا ﷺ كان مراداً إذ قيل له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح] (١) .

وأيضا

المريد الصادق هو الذى قرأ القرآن وحفظ السنة ، والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فَهْماً فى كتابه وسنة رسوله ، يغنيه عن تقليد فهم غيره (٢) .

الإمامة فى الدين

إذا تزوج الصبر باليقين ، ولد بينهما حصول الإمامة فى الدين ، قال الله تعالى ـ وبقوله يهتدى المهتدون : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة] (٣) .

مفاسد الفهم القاصر

ما أكثر ما ينقل الناس المذاهب الباطلة عن العلماء بالأفهام القاصرة ، ولو ذهبنا نذكر ذلك لطال جداً (٤) .

أنفع الأدب

قال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم ، وسئل الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ عن أنفع الأدب ، فقال : التفقه فى الدين ، والزهد فى الدنيا ، والمعرفة بما لله عليك (٥) .

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٤٥٣) .
(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٦٨) .
(٣) مدارج السالكين (٢ / ٣٩٧) .
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٤٣١) .
(٥) مدارج السالكين (٢ / ٣٧٦) .

تَحرِّ الحق

الصادق الذكى يأخذ من كل منهم [١] ما عنده من الحق فيستعين به على مطلبه ، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره فى الحق الآخر ويهدره به ، فالكمال المطلق لله رب العالمين ، وما من العباد إلا له مقام معلوم [٢] .

اتهام النفس

إن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائما لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ولا كراهته ولا استحبابه [٣] .

دواعى النفس

إن فى النفس ثلاثة دواع متجاذبة : داع يدعوها إلى الاتصاف بأخلاق الشيطان : من الكبر والحسد والعلو والبغى والشر والأذى والفساد والغش .

وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان ، وهو داعى الشهوة .

وداع يدعوها إلى أخلاق المَلَك : من الإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة .

فحقيقة المروءة : بغض ذينك الداعيين ، وإجابة الداعى الثالث . وقلة المروءة وعدمها: هو الاسترسال مع ذينك الداعيين والتوجه لدعوتهما أين كانت .

فالإنسانية والمروءة والفتوة : كلها فى عصيان الداعيين وإجابة الداعى الثالث كما قال بعض السلف : خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة ، وخلق البهائم شهوة بلا عقول ، وخلق ابن آدم وركب فيه العقل والشهوة ، فمن غلب عقله شهوته : التحق بالملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله : التحق بالبهائم [٤] .

---

(١) أى من أرباب البصائر ممن تكلم فى السير وصفة المنازل ، وممن تكلم فى الآفات والقواطع ، وممن تكلم فى التوحيد وحقائق الأسماء والصفات .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٢) .

(٣) مدارج السالكين (١ / ٤٩١) .

(٤) مدارج السالكين (٢ / ٣٥١) .

فضل المجاهدين

قال الأوزاعي وابن المبارك : « إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر » يعني أهل الجهاد ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت] (١) .

الكبائر والصغائر

قال مالك بن مغول : الكبائر ذنوب أهل البدع والسيئات ذنوب أهل السنة ، قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة .

فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع ، وهذا معنى قول بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن البدعة لا يتاب منها والمعصية يتاب منها (٢) .

الأيمان الكاذبة

أهل الريبة يكذبون ويحلفون ؛ ليحسب السامع أنهم صادقون ، قد ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [المنافقون] (٣) .

النفاق

زرع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب وساقية الرياء ، ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة وعين ضعف العزيمة ، فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحلم نبات النفاق وبنيانه ، ولكنه بمدارج السيول على شفا جرف هار فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تبلى السرائر وكشف المستور ، وبعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ، تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق : إن حواصله التي حصلها كانت كالسراب ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور](٤).

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٥١١) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٣٢٢) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ٣٥٣) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ٣٥٨) .

أثر الغذاء على الطبع

كل من ألف ضربًا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه ، فإن تغذى بلحمه كان الشبه أقوى ، فإن الغاذى شبيه بالمغتذى [١] .

أنفع الدعاء

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء ، فإذا هو سؤال العون على مرضاته،ثم رأيته فى الفاتحة فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾[٢].

جحد الحق

إن كل من أعرض عن شىء من الحق وجحده وقع فى باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولابد ، حتى فى الأعمال من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق ، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده ، فابتلى بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك ، وكذلك من رغب عن إنفاق ماله فى طاعة الله ابتلى بإنفاقه لغير الله ، وهو راغم ، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلى بالتعب فى خدمه الخلق ولا بد ، وكذلك عن رغب من الهدى بالوحى ، ابتلى بكناسة الآراء ، وزبالة الأذهان ، ووسخ الأفكار [٣] .

الاستدراج بالنعم

كم من مستدرج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله ، حوائجه وستره عليه : وأكثر الخلق عندهم : أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح ذلك مبلغهم من العلم [٤] .

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٤٠٣) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٧٨) .
(٣) مدارج السالكين (١ / ١٦٥) .
(٤) مدارج السالكين (١ / ١٧١) .

obeikandl.com

الجفاء

قيل : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا [١] .

الأعمال بالخواتيم

الخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم [٢] .

البخل

الفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك[٣].

المال الحرام

إذا كان أكثر مال الرجل حراما فلا يعجبنى أن يؤكل ماله ، وهذا على سبيل التحريم[٤].

كثرة الاختلاف فى المتأخرين

كلما تأخر الزمان كثر النزاع ، وحدث من الاختلاف بين المتأخرين ما لم يكن فى الذين قبلهم[٥] .

حب التفرّد

شأن النفوس أنها موكلة بكل غريب تستحسنه وتؤثره وتنافس فيه ، حتى إذا كثر ورخص وناله المثرى والمقل زهدت فيه ، مع كونه أنفع لها وخيرا لها ، ولكن لرخصه وكثرة الشركاء فيه وتطلب ما تتميز به من غيرها للذة التفرد والاختصاص [٦].

---

(١) مدارج السالكين (١ / ٢٠٢) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٢٧٧) .
(٣) عدة الصابرين (١٥٠)
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٤١) .
(٥) الصواعق المرسلة (٢ / ٦٥٣) .
(٦) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٤٩) .

obeikandl.com

من آثر الأدنى على الأعلى

قد جرت عادة الله ـ سبحانه ـ أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى ويجعله عبرة العقلاء[1] .

اتباع الهوى

كل ما الناس فيه فإما طاعة للرسول وإما هوى لنفوس ، لا يخرج عن الأمرين ، وكل ما ليس بطاعة للرسول فهو هوى للأنفس .

قال تعالى : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** (٥٠) ﴾ [القصص] .

والقلب متى لم يكن على قلب الرسول وأصحابه فى القصد والعلم والمحبة والكراهة والتصديق واستحسان ما استحسنوه وإيثاره ، واستقباح ما استقبحوه واجتنابه ، كان فيه من الانحراف عن الإيمان بقدر انحرافه عن ذلك حتى تعود القلوب كما قال : حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : القلوب على أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن ، فإنه أجرد أى متجرد من هذا الانحراف فى قصده وحبه وعلمه ، متجرد عن شهوات الغى وشبهات الباطل ، متجرد عن معارضات أمـر الله بالتأويل والشهوات ، وعن معارضات خبره بالتقليد والشبهات ، وفيه من الإيمان ومباشرة روحه له سراج يزهر ، فهذا هو القلب السليم . . .[2].

ما يُذَمّ به العبد

إن الله ـ سبحانه ـ لا يذم العبد على ما ليس من كسبه وفعله كما لا يذمه على دمامته وقبح شكله ،وإنما يذم العبد بأفعاله الاختيارية دون ما لا اختيار له فيه، وإنما ذم ـ سبحانه ـ ما يكون باختيار العبد من رفع الصوت الرفيع المنكر ، كما يوجد ذلك فى أهل الغلظ

---

(١) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٣٣) .

(٢) الكلام على مسألة السماع (٩٩) .

والجفاء من الفدادين الصخَّابين بالأسواق ، كما قال النبى ﷺ : « الجفا والغلظ وقسوة القلب فى الفدادين من أهل الوبر » (١) وهم الصياحون صياحًا منكرا ، وفى صفة النبى ﷺ: « ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق » (٢) (٣) .

الطب

كل طبيب لا يداوى العليل ، بتفقد قلبه وصلاحه ، وتقوية روحه وقواه بالصدقة ، وفعل الخير ، والإحسان ، والإقبال على الله والدار الآخرة فليس بطبيب ، بل متطبب قاصر. ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان والذكر والدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، والتوبة ، ولهذه الأمور تأثير فى دفع العلل ، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها وعقيدتها فى ذلك ونفعه(٤) .

صلاح حال العبد فى الدارين

لا يتم صلاح العبد فى الدارين إلا باليقين والعافية ، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا فى قلبه وبدنه (٥) .

رياضة الأعضاء

أى عضو كثرت رياضته قوى ، وخصوصًا على نوع تلك الرياضة ، بل كل قوة فهذا شأنها ، فإن من استكثر من الحفظ قويت حافظته ، ومن استكثر من الفكر قويت قوته المفكرة ، ولكل عضو رياضة تخصه (٦) .

الروح تميل إلى ما يناسبها

الأرواح الطيبة تحب الرائحة الطيبة ، والأرواح الخبيثة تحب الرائحة الخبيثة ، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين ،

---

(١) البخارى (٢ ٣٣٠) فى بدء الخلق ، باب : خير مال المسلم غنم يتبع بها سعف الجبال ، ومسلم (٥١ / ٨١) فى الإيمان باب : تفاضل أهل الإيمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه ، وأحمد (٤ / ١١٨) .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى (١ / ٢٩١) فى جماع أبواب صفة رسول الله ﷺ ، باب حديث هند بن أبى هالة .

(٣) الكلام على مسألة السماع (٣٥٣) .

(٤) زاد المعاد (٤ / ١٤٤) .

(٥) زاد المعاد (٤ / ٢١٦) .

(٦) زاد المعاد (٤ / ٢٤٧) .

والطيبون للطيبات ، وهذا وإن كان فى النساء والرجال ، فإنه يتناول الأعمال والأقوال ، والمطاعم والمشارب ، والملابس والروائح ، وإما بعموم لفظه ، أو بعموم معناه [١] .

فضل يوم الجمعة

إنه [٢] اليوم الذى يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة ، فالله سبحانه جعل لأهل كل ملة يومًا يتفرغون فيه للعبادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة وهو فى الأيام كشهر رمضان فى الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر فى رمضان ، ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر ، وبالله التوفيق [٣] .

احتمال المشقة لخير منتظر

العمال فى الدنيا إنما يتصرفون بناء على الغالب المعتاد الذى طردت به العادة وإن لم يجزموا به ، فإن الغالب صدق العادة واطرادها عند قيام أسبابها ، فالتاجر يحمل مشقة السفر فى البر والبحر،بناء على أنه يسلم ويغنم ، فلو طرد هذا القياس الفاسد ،وقال : السفر مشقة متحققة والكسب أمر موهوم ، لتعطلت أسفار الناس بالكلية ، وكذلك عمال الآخرة لو قالوا : تعب العمل ومشقته أمر متحقق وحسن الخاتمة أمر موهوم ، لعطلوا الأعمال جملة ، وكذلك الأجراء والصناع والملوك والجند وكل طالب أمر من الأمور الدنيوية والأخروية ،لولا بناؤه على الغالب وما جرت به العادة لما احتمل المشقة المتيقنة لأمر متظر[٤] .

ارتكاب أخف الضررين

العقلاء قاطبة متفقون على أنه يحسن إتلاف جزء لسلامة كل ، كقطع الأصبع أو اليد المتآكلة لسلامة سائر البدن ، ولذلك يحسن الإيلام لدفع إيلام أعظم منه كقطع العروق وبط الخراج ونحوه [٥] .

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٢٧٩) .
(٢) أى : يوم الجمعة .
(٣) زاد المعاد (١ / ٣٩٨) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٨ ، ٩٩) .
(٥) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٨) .

المشاحنة فى الاصطلاحات

المشاحنة فى الاصطلاحات لا تنفع طالب الحق ،ولا تجدى عليه إلا المناكدة والتعنت(١).

حبك الشىء يعمى ويصم

لو تَجَرَّدتْ (٢) من حب من ولدته ، وبغض من خالفته ، وجردت النظر ، وصابرت العلم ، وتابعت المسير فى المسألة إلى آخرها ، لأوشك أن تعلم الحق من الباطل ولكن حبك الشىء يعمى ويصم ، والناظر بعين البغض يرى المحاسن مساوى. هذا فى إدراك البصر مع ظهوره ووضوحه ، فكيف فى إدراك البصيرة ، لا سيما إذا صادف مشكلا فهذه بلية أكثر العالم .

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا إخالك ناجيا (٣)

الشهادة بالقسط

فليتأمل اللبيب الفاضل ماذا يعود إليه نصر المقالات والتعصب لها ، والتزام لوازمها ، وإحسان الظن بأربابها ، بحيث يرى مساويهم محاسن ، وإساءة الظن بخصومهم ، بحيث يرى محاسنهم مساوئ .كم أفسد هذا السلوك من فطرة ، وصاحبها من الذين ﴿ **يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ** ﴿١٨﴾ ﴾ [المجادلة] ، ولا يتعجب من هذا ، فإن مرآة القلب لا يزال يتنفس فيها منها حتى يستحكم صداؤها ، فليس ببدع لها أن ترى الأشياء على خلاف ما هى عليه ، فمبدأ الهدى والفلاح صقال تلك المرآة ، ومنع الهوى من التنفس فيها وفتح عين البصيرة فى أقوال من يسىء الظن بهم ، كما يقبحها فى أقوال من يحسن الظن به وقيامك لله وشهادتك بالقسط ، وألا يحملك بغض منازعيك وخصومك على جحد دينهم، وتقبيح محاسنهم،وترك العدل فيهم، فإن الله لا يعتد بتعب من هذا ثناء ولا يجدى علمه نفعاً أحوج ما يكون إليه، والله يحب المقسطين ولا يحب الظالمين (٤) .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٦٥) .
(٢) أى : العقول .
(٣) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧١) .
(٤) مفتاح دار السعادة (٢ / ٧٥) .

فعل العبد من الحقيقة والصورة

إن استواء الفعلين فى الصورة لا يوجد استواءهما فى الحقيقة ، ومدعى ذلك فى غاية المكابرة ، وهل يدل استواء السجود لله والسجود للصنم فى الصورة الظاهرة وهو وضع الجبهة على الأرض على أنهما سواء فى الحقيقة حتى يتحير العقل بينهما ويتعارضان فيه ، ويكفى فى فساد هذا إطباق العقلاء قاطبة على قبح القتل الذى هو ظلم وبغى وعدوان ، وحسن القتل الذى هو جزاء وقصاص وردع وزجر ، والفرق بين هذين مثل الفرق بين الزنا والنكاح ، بل أعظم وأظهر ، بل الفرق بينهما من جنس الفرق بين الإصلاح فى الأرض والإفساد فيها ، فما تعارض فى عقل صحيح قط هذان الأمران حتى يتحير بينهما أيهما يؤثره ويختاره (١) .

لا عصمة للولىّ

ليس من شرط ولى الله العصمة ، وقد تقاتل أولياء الله فى صفين بالسيوف ، ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلى أهل الجنة ، وكون ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأولاً أو عاصيا لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ، ولا يخرجه عن أصل ولاية الله (٢) .

التوفيق فى ترتيب الدليل

ما كُلّ من علم شيئا أمكنه أن يستدل عليه ولا كل من أمكنه الاستدلال عليه يحسن ترتيب الدليل وتقريره والجواب عن المعارض (٣) .

باب جامع

من أراد من العمال أن ينظر قدره عند السلطان فلينظر ماذا يوليه . وحدّ زيد وما رأى الرسول ، وكفر ابن أُبىّ وقد صلى معه القبلتين . لما تقدم اختبار الطين المنهبط صعد على

(١) مفتاح دار السعادة (٢ / ٩٧) .
(٢) مدارج السالكين (١ / ٥٠٠) .
(٣) مدارج السالكين (٣ / ٤٨٧) .

النار المرتفعة فكانت الغلبة لآدم فى حرب إبليس . سبق العلم بنبوة موسى وإيمان آسية ، فسبق تابوته إلى بيتها ، فجاء طفل بلا أم إلى امرأة بلا ولد . يا من هو من جملة عسكر الرسول أيحسن بك كل يوم هزيمة . الحيوانات تذل فى طلب القوت ، والفيل يتملق حتى يأكل :

إن كان يوجب صبرى رحمتى فرضى ... بسوء حالى وحل للضنا بدنى
منحتك القلب لا أبغى به ثمنا ... إلا رضاك ووافقرى إلى الثمن

قال غيره :

أحن بأطراف النهار صبابة ... وبالليل يدعونى الهوى فأجيب

غيره :

سأتعب نفسى أو أصادف راحة ... فإن هوان النفس أكرم للنفس

يا من هو من أرباب الخبرة ، هل عرفت قيمة نفسك ، إنما خلقت الأكوان كلها لك . يا من غذى بلبان البر ، وقلب بأيدى الألطاف ، كل الأشياء شجرة وأنت الثمرة ، وصورة وأنت المعنى ، وصدف وأنت الدر ، ومخيض وأنت الزبد ، منشور اختيارنا لك واضح الخط ، ولكن استخراجك ضعيف ، متى رمت طلبى فاطلبنى عندك ، ويحك لو عرفت قدر نفسك ما أهنتها بالمعاصى ، إنما أبعدنا إبليس لأنه لم يسجد لك وأنت فى صلب أبيك . فوا عجبا كيف صالحته وتركتنا ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا** ﴾ [الكهف : ٥٠] ،لو كان فى قلبك محبة لبان أثرها على جسدك . عجب ربنا من رجل ثار عن وطائه ولحافه إلى صلاته . تأمل معنى ثار ولم يقل : قام لأن القيام قد يقع بفتور ، فأما الثوران فلا يكون إلا بإسراع حذرا من فائت ما . انتفع آدم فى بلية وعصى بكمال وعلم ، ولا رد عنه عز اسجدوا ، وإنما خلصه ذل ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** ﴾ [الاعراف : ٢٣]، لما عشقت للبلاء به الشجر تعلقت طلبا للعناق ، فقيل لها مع الكثافة : لا يمكن ، فرضيت بالنحول والتفت .

تلقى قلبى فقد أرسلته عجلا ... إلى لقائك والأشواق تقدمه
ولا تكلنى على بعد الديار إلى ... صبرى الضعيف فصبرى أنت تعلمه

قال الشاعر :

إذ لم يكن بينى وبينك مرسل فريح الصبا منى إليك رسول

ملؤوا مراكب القلوب متاعا لا ينفق إلا على الملك ، فلما هبت رياح السحر أقلعت تلك المراكب قطعوا بادية الهوى بأقدام الجد ، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر فاعتنقتهم الراحة فى طريق التلقى ، فدخلوا بلد الوصل وقد حازوا ربح الأبد .

فرغ القوم قلوبهم من الشواغل فضربت فيها سرادقات المحبة ، فأقاموا العيون تحرس تارة وترسق الأرض أخرى . سرادق المحبة لا تضرب إلا فى قاع فارغ نزه .

فرغ لى بيتا أسكنه أعرف مقدار ما ضاع منك ، وابك بكاء من يدرى مقدار الفائت . لو تخيلت قرب الأحباب لأقمت المأتم على بعدك . لو استنشقت ريح الأسحار لأفاق قلبك المخمور . من استطال الطريق ضعف مشيه .

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيننا طوال الليالى أو بعيد المفاوز

أما علمت أن الصادق «إذا هم ألقى بين عينيه عزمه » . إذا نزل آب فى القلب سكن آذار فى العين . من قبل فم اللذة لا ينكر عض أسنان الندامة . هان سهر الحراس لما علموا أن أصواتهم بمسمع الملك « رفيقك قيسى ، وأنت يمانى » . إذا كنت كلما لاحت لك شهوة طفيل العرائس فانتظر قبلة وضاح اليمن . من لاح له كمال الآخرة هان عليه فراق الدنيا . إذا لاح للباشق الصيد نسى مألوف الكف . يا أقدم الصبر احملى بقى القليل . تذكر حلاوة الوصال يهن عليك مر المجاهدة . قد علمت أين المنزل فأحد لها نسر . قال أبو يزيد : ما زلت أسوق نفسى إلى الله وهى تبكى حتى سقتها إليه وهى تضحك . الهمة العلية من استعد صاحبها للقاء الحبيب وقدم التقادم بين يدى الملتقى فاستبشر عند القدوم ﴿**وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوه**﴾ [البقرة : ٢٢٣] . الجنة ترضى منك بأداء الفرائض والنار تندفع عنك بترك المعاصى ، والمحبة لا تقنع منك إلا ببذل الروح ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [التوبة :١١١] بدم المحب يباع وصلهم ، فمن الذى يبتاع بالثمن، لله ما أحلى زيارة تسعى بها أقدام الرضى على أرض الاشتياق .

زرناك شوقا ولو أن النوى بسط فرش الفلا بيننا جمرا لزرناك

ما سافر الخليل سفرا ، ولا سلك طريقا أطيب من الفلاة التى دخلها حين خرج من كفة المنجنيق ، رآه جبريل قد ودع بلد العادة فظن ضعف قدم التوكل ، فعرض عليه زاد : ألك حاجة ؟ فرده بأنفة : أما إليك فلا . لما تكاملّ وفاؤه ما أمر به جاءته خلعته ﴿**وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾**﴾ [النجم].

قالت لطيف خيال زارها ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

فقال خلفته لو مات من ظمأ وقلت قف عن ورود الماء لم يرد

قالت صدقت الوفا فى الحب شيمته يا برد ذاك الذى قالت على كبدى

وقال غيره :

إن قومى بانوا فرقوا بينه وبينى فإذا كنت أنا الرهن فمن يقبض دينى

وقال غيره :

وكم مغرم بين تلك الخيا م تحسبه بعض أطنابها

للنفس حظ وعليها حق ، فلا تميلوا كل الميل ، وزنوا بالقسطاط المستقيم . وإن رأيتم منها فتوراً فاضربوها بسوط الهجر فى المضاجع فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . ارفقوا بمطايا الأبدان ، فقد ألفت الترف ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن . إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق ، ولا تحملوا على النفوس فوق الطاقة إلى أن تتمكن المحبة فلها حينئذ حكمها . شراب الهوى حلو ولكنه يورث الشرق .من تذكر خنق الفخ هان عليه هجران الحبة . يا معرقلا فى شرك الهوى حموة عزم وقد خرقت الشبكة ، لابد من نفوذ القدر ، فاجنح للسلم أى تصرف ،بقى لك فى قلبك وهو بين أصبعين .يا منقطعين عن القوم سيروا فى بادية الدجى ،وانتحوا بوادى الذل ، فإذا فتح باب للواصلين فدونكم فاهجموا هجوم اللوانين ، وابسطوا أكف ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف : ٨٨] . لعل هاتف الرحمة يقول ﴿لا تَثْرِيبَ﴾ [يوسف : ٩٢] . ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران : ١٨٩] . واستقرض منك حبة فبخلت بها ، وخلق سبعة أبحر واستقرض دمعة فقحطت عينك بها . إطلاق البصر ينقش فى القلب صورة المنظور والقلب كعبة ، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام . لذات الدنيا كسوداء وقد غلبت عليك ، والحور العين يعجبن من سوء اختيارك عليهن،غير أن زوبعة الهوى إذا ثارت سفت فى عين البصيرة فخفيت الجادة تدور عينك على المحرمات كأنك قد ضاع منك شىء ، ورواحل همتك فى الهوى ما تحمل لها قتب . إن قهر نفسك حب الفانى فذكرها العيش الباقى فإن أبت إلا بيع الغبن فاحجر عليها حجر السفيه وغط بصر باشقك إلى أن ينسى ما رأى ، واغسل باطن عينيك بطهور المدامع ، وكلما تذكرت ما أبصرت فاطرق بدمعة ، لعل فرط البكاء يدفع فساد البصر فيصلح لرؤية الحبيب .

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواهـا وما طهـرتها بالمدامـع
وتسمع منها لفظة بعد ما جرى حديث سواها فى خروق المسامع

قال غيره :

إذا لم أنل منكم حديثا ونظرة إليكم فما نفعى بسمعى وناظرى

تزينت الجنة للخطاب فجدوا فى تحصيل المهور . تعرّف رب العزة المحبين فعملوا على اللقاء ، وأنت مشغول بالجيف ما يساوى ربع الدينار ، خجل الفضيحة فكيف بألم القطع . المعرفة بساط لا يطأ عليه إلا مقرب ، والمحبة نشيد لا يطرب عليه إلا محب مغرم ، والحب غدير فى صحراء ليس عليه جادة ؛ فلهذا قل وراده . المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه والتعلق بذكره ، كهرب الحوت إلى الماء ، والطفل إلى أمه .

وأخرج من بين البيوت لعلنى أحدث عنك النفس بالسر خاليا

لو رأيت المحبين فى الدجى تمر عليهم زمر النجوم مر الوصائف إلى أن تقبل هوادج ، هل من سائل فينثرون عليه الأرواح نثر الفراش على النار . ليس للعابدين مستراح إلا تحت شجرة طوبى ، ولا للمحبين قرار إلا يوم المزيد ، فمثل لقلبك الاستراحة تحت شجرة طوبى يهن عليك النصب واستحضر يوم المزيد يهن عليك ما تتحمل من أجله . كنوز الجواهر مودعة فى مصر الليل فتتبع آثار المحبين ، لعلك تظفر بكنز.أنت طفل فى حجر العادة مشدود بقماط الهوى فمالك ولمزاحمة الرجال، أين أنت والمحبة وأنت أسير الحبة . تمسكت بالدنيا تمسك الرضيع بالظئر والقوم ما أعاروها الطرف . أف لبدوى لا يطربه ذكر حاجر . انقسم الصالحون عند السباق، فمنهم من أخذه القلق فكان يقول : ويل لى إن لم يغفرها ، أنا أمضى إلى النار أو يغفر .ومنهم من غلب عليه الرجاء كبلال ، كانت زوجته تقول : واحزناه ، وهو يقول : واطرباه ، غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه .

واهاً لبلال علم أن الإمام لا ينسى المؤذن . اشتغل به فى الحياة يكفك ما بعد الموت . دق كؤوس الرحيل فسار الركب وتأهبوا للمسير ،وعكمت أحمال الزاد وسار رفقة المجدين،وأنت فى الرقدة الأولى بعد كيف تطيق السهر مع الشبع ، أم كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل ؟ هيهات ما وصل القوم إلى المنزل إلا بعد مواصلة السرى ،ولا عبروا إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب .

وأطيب الأرض ما للقلب فيه هوى سم الخياط مع المحبوب ميدان

لو رأيت أهل القبور فى وثائق الأسر فلا يستطيعون الحركة إلى نجاة ، وحيل بينهم

وبين ما يشتهون ، يا منفقا بضاعة العمر فى مخالفة حبيبه والبعد منه ليس فى أعدائك أشد شرا عليك منك .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

غيره :

هذا المحب لديك فانظر هل ترى قلباً فإن صادفت قلباً فاعذل

غاية العاذل إيصال اللوم إلى الأذن فأما القلب فلا سبيل له إليه . سفر الليل لا يطيقه إلا مضمر المجاعة . تمر النجائب فى الأول وحاملات الزاد فى الآخر ، ولو وردت ماء مدين لوجدت عليه أمة من الناس يسقون . إقبال الليل عند المحبين كقميص يوسف في أجفان يعقوب . لو أحببت المخدوم حضر قلبك فى خدمته .

فيا دارها بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

العروس تلبس عند العرض تحت الثياب شعار الخوف من الرد ، وفوق الثياب حلة الانكسار ، وحمرة الخجل تغنيها عن تخمير مستعار ؛ لأنها لا تدرى على ماذا تقدم ، فكيف يسكن من لا يعرف العواقب . مداراة قيس ممكن ولكن لا مع ذكر ليلى . انقسم العباد ثلاثة أقسام : فمنهم من لاحظ الحصاد فزاد فى البذر ، ومنهم من رأى حق المخدوم فقام بأدائه ، ومنهم من خدم حبا وشوقا فتلذذ بالخدمة ، وهذه الخدمة لا ثقل لها ؛ لأن محركها الحب وغيرها ثقيل على البدن . نوق أبدان المحبين لا تحس بالنصب وأسماعها مشغولة بصوت الحادى،وقلوبها معلقة بالمنزل . من عبده خوفا أمنه ، ومن عبده رجاء أعطاه أمله ، ومن عبده حبا فلا تعلم نفس ما أخفى لها .

يراها بعين الشوق قلبى على النوى فتحظى ولكن من لعينى برؤياها

وهبكم منعتم أن يراها بعينه فهل تمنعون القلب أن يتمناها

كم دخل المجلس عاص فى باطنه باطية خمر ، فما زالت تعمل فيها حدة شمس التذكير حتى انقلبت خلا فحلت .

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى إليكم تلقى نشركم فيطيب [1]

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢١٣ ـ ٢١٩) .

وأيضا

متى رأيت العقل يؤثر الفانى على الباقى فاعلم أنه قد مسخ ، ومتى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه وحل فيه حب المخلوق والرضى بالحياة الدنيا والطمأنينة بها فاعلم أنه قد خسف به ، ومتى أقحطت العين من البكاء من خشية الله تعالى، فاعلم أن قحطها من قسوة القلب . وأبعد القلوب من الله القلب القاسى . ومتى رأيت نفسك تهرب من الأنس به إلى الأنس بالخلق ، ومن الخلوة مع الله إلى الخلوة مع الأغيار، فاعلم أنك لا تصلح له . ومتى رأيته يستزيد غيرك وأنت لا تطلب ، ويستدنى سواك وأنت لا تقرب ، فإن تحركت لك قدم فى الزيارة تخلف قلبك فى المنزل ، فاعلم أنه الحجاب والعذاب . مزاج الإيمان منحرف عن الصحة ، ونبض الهوى شديد الخفقان . تحكمت أخلاط الشهوات فى أعضاء الكسل فثبطت عن الحركة ، فتولدت الأمراض المختلفة ، هذا وما يسهل عليك شرب مسهل ، فإن تداركت المرض وإلا قتل . لو احتميت ساعة لم تحتج إلى معالجة الدواء مدة . من ركب ظهر التفريط والتوانى نزل به دار العسرة والندامة . ربك يحب حياة نفسك وأنت تريد قتلها .يريد بك اليسر وأنت تريد العسر. يريد بها الكرامة وأنت جاهد فى إهانتها.

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

من أدلج فى غَيَاهِب الليل على نجائب الصبر صبح منزل السرور . ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقى بوادى الأسف . الجد كله حركة ، والكسل كله سكون . فتورك عن السعى فى طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم . إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة وقت خروجه من البيضة فعلقه بمنقاره فإن تحرك فديك وإلا فدجاجة .

الدنيا كامرأة بغى ، لا تثبت مع زوج ، فلذلك عيب عشاقها .

ميـزت بـين جمالهـا وفعالهـا ... فإذا الملاحة بالقباحة لا تفى

حلفت لنـا ألا تخـون عهودهـا ... فكـأنما حلفـت لنـا ألا تفـى

ما حظى الدينار بنقش اسم الملك فيه حتى صبرت سبيكته على الترداد إلى النار ، فنفت عنها كل خبث ، ثم صبرت على تقطيعها دنانير ، ثم صبرت على ضربها على السكة، فحينئذ يظهر عليها رقم النقش فكيف يطمع فى نقش كتب فى قلوبهم الإيمان من كله خبث . مكابدة البادية تهون عند ذكر البيت المضحى بوادى الجوع ، والمعشى بوادى

السهر ، إلى أن تلوح أعلام المنزل . إذا ونت الركاب فى السير فبثوا حداة العزم فى نواحيها يطيب لها السرى . إذا حال غيم الهوى بين القلوب وبين شمس الهدى تحير السالك . الحيوان البهيم يتأمل العواقب،وأنت لا ترى إلا الحاضر .ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتى يقوى البرد ، ولا بمؤونة الصيف حتى يقوى الحر .والذر يدخر الزاد من الصيف لأيام الشتاء وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع ، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر ، فهلا بعثت فراش ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [الروم] .وهذا اليربوع لا يتخذ بيتا إلا فى موضع صلب ليسلم من الحافر ، ويكون مرتفعا ليسلم من السيل ، ويكون عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه ، ثم يجعل له أبوابا ويرقق بعضها فلا ينفذه ، فإذا أتى من باب مفتوح دفع برأسه ما رقّ من التراب وخرج منه ، وأنت قد ضيقت على نفسك الخناق ، فما أبقيت للنجاة موضعا . النفس كالعدو إن عرفت صولة الجد منك استأسرت لك ، وإن أنست عنك المهانة أسرتك أتمنعها ملذوذ مباحاتها ليقع الصلح على ترك الحرام ، إذا احتجت لطلب المباح ﴿ **فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً** ﴾ [محمد : ٤] . الدنيا والشيطان عدوان خارجان عنك والنفس عدو بين جنبيك . ومن سنة الجهاد ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم** ﴾ [التوبة : ١٢٣] .أليس المبارز بالمحاربة كالكمين الذى يطلع عليك من حيث لا تشعر . أقل ما تفعل النفس معك أنها تمزق العمر بكف التبذير والبطالة ،اخل معها فى بيت الفكر سويعة ، ثم انظر هل هى معك أو عليك؟ ثم عاملها بما تعامل به واحدا منهما . من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه. سينقشع غيم التعب عن فجر الآخرة . كم صبر بشر عن شهوة حتى سمع : كل يا من لم يأكل . يا من حسد سجاف نعم العبد على قبة ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ** ﴾ [مريم : ٥٣] حتى وصل على قدر ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا** ﴾ [ص : ٤٤] كيف يفلح من يشكو الليل إلى ربه من طول نومه والنهار من قبيح فعله . كيف يفلح من هو جيفة بالليل قطرب بالنهار، ينصب بميزان البخس وميكال التطفيف ، والقدر ثالثة الأثافى . لو فكر الطائر فى الذبح ما حام حول القمح . لولا صبر المضمرات على قلة العلف ما قيل لها سوابق .

مما أضر بأهل العشق أنهم	هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنى نفوسهم شوقا وأعينهم	فى أثر كل قبيح وجهه حسن
تحمل حميلكم كل رابحة	فكل بين على اليوم مؤتمن
ما فى هوادجكم من مهجتى عوض	إن مت شوقا ولا فيها لها ثمن

سهرت بعد رحيل وحشة لكم ثم استمر مريرى وارعوى الوسن
لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام تصحب فيه روحك البدن
فما يديم سرورا قد سررت به ولا يرد عليك الغائب الحزن

إذا لم تكن من أنصار الرسول فتنازل الحرب فكن من حراس الخيام ، فإن لم تفعل فكن من نظارة الحرب الذين يتمنون الظفر للمسلمين ، ولا تكن الرابعة فتهلك . إذا رأيت الباب مسدود فى وجهك فاقنع بالوقوف خارج الدار مستقبل الباب سائلا مستعطيا فعسى ، ولكن لا تول ظهرك وتقول : ما حيلتى وقد سد الباب دونى . لما نادى منادى الأفضال ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الانعام : ١٦٠] سارت نجائب الأعمال قام الجزاء يصبح بالدليل ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ ﴾ [الإسراء : ٧٤] فقال ما منكم من ينجيه عمله إن لم تقدر على مشارع أرباب العزائم فرد باقى الحياض ، فمن لم يكن عنده ابن لبون قبلت منه ابنة مخاض، لا تحتقر معصية فكم أحرقت شررة : أما عرفت سر ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [البقرة : ٣٥].لو قنع آدم لاكتفى ،ولكن المحنة كانت فى الشره.الخلوة شرك لصيد المؤانسة . أخفى الصيادين شخصا وأقلهم حركة أكثرهم التقاطا للصيد . ما صاد هرنوا ، أى صوت .

أبدًا نفوس العاشقين إلى ربوعكم تحن
وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئن

غيره:

طلولى إذا يشكو إليها متيم شكى غير ذى نطق إلى غير ذى فهم

غيره :

وإنما عمر الفتى سوق له يصدر عنه غانما أو خاسرا

غيره :

نراع إذا الجنائز قابلتنا ونلهو حين تخفى ذاهبات
كروعة ثلة لظهور ذئب فلما غاب عادت راتعات

خذ نفسك بالعزائم لا ترخص .حائط الباطن خراب فعلام ذا تجصص . العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة . والجهل والبطالة توأمان أمهما إيثار الكسل . أيها المعلم، تثبت على المبتدى وقدر فى السرد ، فللعالم رسوخ وللمتعلم قلق .ويا أيها الطالب ، تواضع فى

الطلب ، فإن التراب بيننا هو تحت الأخمص صار طهورا للوجه . تجلى عليك عروس المعرفة ،ولكن على غير كفؤ . وإنما يحل النظر إذا كان العقد جائزا . فغض الطرف إنك من نمير . ليس العالم شخصا واحدًا ،العالم عالم تصانيف . العالم أولاده المخلدون دون أولاده . من خلق للعلم شف جوهره من الصغر . طول السهر مفض إلى طيب المرقد، والهوان فى ظلل الهوينا كامن . وجلالة الأخطار فى ركوب الأخطار . مياه المعانى مخزونة فى قلب العالم ، يفتح منها للسقى سيحا بعد سيح ، ويدخر أصفاها لأهل الصفا، فإذا تكاثرت عليه نادى للسبيل فيبقى علمه سيح ولهذا يتضاعف عليه زكاة الشكر. كل وقت تسافر بضائع فكره من مدينة قلبه إلى قلوب الطالبين ، فينادى عليها دلال لسانه وهو يعرضها فى مواسم النصح على تجار الطلب والإرادة ، من يشترى حكمة وعلما بتخبير الثمن . فيا من يرى علو تلك المرتبة لا تنس الدرج . كم خاض بحرا ملحا حتى وقع بالعذب ، وكم تاه فى مهمه قفر حتى سمى بالدليل ، وكم أنض مراكب الجسم ، وفض شهوات الحس ، وواصل السرى ليلا ونهارا ، وأوقد نار الصبر فى دياجى الهوى ، فإن وثقتم بأمانته فهذا تخبير السرى . فالدنيا تفوق سهامها نحو بنيها وتقول : خذوا حذركم ، فلهذا دم قتلاها هدر . غاب الهدهد عن سليمان ساعة ، فتوعده ، فيا من أطال الغيبة عن ربه هل أمنت غضبه . تخلف الثلاثة عن الرسول فى غزوة واحدة فجرى لهم ما سمعت ، فكيف بمن عمره فى التخلف عنه . إذا سكر الغراب بشراب الحرص تنقل بالجيف ، فإذا صحى من خماره ندم على الطلل . خالف موسى الخضر فى طريق الصحبة ثلاث مرات فحل عقدة الوصال بيد هذا ﴿ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ [الكهف : ٧٨] أفما تخاف يا من لم يف لربه قط أن تقول فى بعض زلاتك ﴿ **هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ** ﴾ .أعظم عذاب أهل جهنم جهلهم بالمعذب . لو صحت معرفتهم بما لمالك هنالك لما استغاثوا بمالك ﴿ **يَا مَالِكُ** ﴾ [الزخرف : ٧٧] . وقع بينهم شخص ليس من الجنس كان فى باطنه ذرة من المعرفة ، فكلما حملت عليه النار اتقاها بدرع : يا حنان ، يا منان . كان موته فى المعاصى سكنة فقير فى جهنم ، فلما تحرك الروح فى الباطن أخرج من القبر . حرص العصفور يخنقه ،وقنع العنكبوت فى زاوية الضعف يسوق إليها الذباب قوتا لها . رب ساع لقاعد . أرسلت قلبك مع كل مطلوب من الهوى ثم تبعث وراءه وقت الصلاة ، فربما لا يلقاه الرسول فتصلى بلا قلب .

خلفت قلبك فى الأظعان إذ نزلت ... بالمأزمين غداة النفر بالنفر

ورحت تطلب فى أرض العراق ضحى ... ما ضاع عند منى فاعجب لذا الخبر

لما طرقنا منى كان الفؤاد معى ... فضل عنى بين الضال والسمر

بأرجل العيس تنبيك الرمال فما أمشى بوجدى غدا إلا على الأثر

يا من فقد قلبه لا تيأس من عوده .

فقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كلّ الظن ألا تلاقيا

الهوى قاطن والصواب خاطر ، وطرد القاطن صعب وإمساك الخاطر أصعب . إنك لم تزل فى حبس ، فأول الحبوس :صلب الأب ، والثانى : بطن الأم ، والثالث : القماط والمهد ، والرابع : المكتب ، والخامس : الكد على العيال ،والسادس : مرض الموت ، والسابع : القبر ، فإن وقعت فى الثامن نسيت مرارة كل حبس تقدم ، ادخل حبس التقوى باختيارك أياما ليحصل لك الإطلاق على الدوام ، ولا تؤثر إطلاق نفسك فيما تحب ، فإنه يؤثر حبس الأبد. العذل على حمل العشق علاوة . ومريخ قطب الشم يوجده ، فروى له خبر التعذيب فعزضا متى تركت المعصية ، وما حللت عقد الإصرار لم يفد شيئا ، كما لو سكن المرض من غير استفراغ ، فإنه على حاله ، إن لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق شيئا . يمين المكره لا تنعقد ، وبحك نفسك سلعتك وقد استامها المشترى بأفخر الثمن ، فاجهد فى إصلاح عيوبها لعله يرضى بها منام المنى أضغاث ، ورائد الآمال كذوب ، ومرتع الشهوات وخيم . العجز شريك الحرمان ، التفريط مصائب الكسل ،قفل قلبك رومى ما يقع عليه غش : متى خامر من جنود عزمك عليك واحد ،لم يأمن قلبك الهزيمة عليه . وإذا كان فى الأنابيب خلف وقع الطيش فى رؤوس الصعاد ، كن قيما على جوارحك ورعيتك إذا وفيتها المحظوظ فاستوف منها الحقوق . تأمل قوله تعالى : ﴿ **فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ** (١١٧) ﴾ [طه] كيف شرك بينما فى الخروج ، وخص الذكر بالشقاء لاشتغاله بالكسب والمعاش ، والمرأة فى خدرها .

تزود من الماء القراح فلن يرى بوادى الغضا ماء نقاحا ولا بردا

فهل من نسيم البان والرند نفحة فهيهات واد ينبت البان والرندا

وكر إلى نجد بطرفك إنه متى تسر لا تنظر عقيقا ولا نجدا

انظر يمنة فهل ترى محنة ، ثم اعطف يسرة فهل ترى إلا حسرة ، أما الربع العامر فدرس ، وأما أسر الممات فغرس . وأما الراكب فكبت به الفرس ، ساروا فى ظلم ظلامتهم فما عندهم قبس ، وقفت بهم سفن نجاتهم ، لأن البحر يبس . وانقلبت تلك الدور كلها فى تعس . وجاء منكر بآخر سبأ ونكير بأول عبس . أفلا يقوم لنجاته من طال ما قد جلس .

يا نفس ما هى إلا صبر أيام كان مدتها أضغاث أحلام

يا نفس جودى عن الدنيا ولذتها وخل عنها فإن العيش قدامى

ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة ، وإنما هى ساعة ويصل إلى برج أمنه وكم فيه من حبة .

وإن حننت للحمى وروضه فبالغضا ماء وروضات أخر

حامل الكتب من الطير أقوى عزيمة ، فلعل وضعك على غير الاعتدال . لا تكون الروح الصافية إلا فى بدن معتدل ، ولا الهمة العالية إلا فى نفس نفيسة ، إذا حمل الطائر الرسالة صابر العزيمة ، ولازم بطون الأودية فإن خفيت عليه الطريق تنسم الرياح ، وتلمح قرص الشمس وتستر ،وهو مع شدة جوعه يحذر الحب الملقى ، خوفا من دفينة فخ توجب تعرقل الجناح ، يضيع ما حمل ، فإذا بلغ الرسالة أطلق نفسه فى أغراضها داخل البرج . فيا حاملى كتب الأمانة أكثركم على غير الجادة ،وما يستدل منكم من قد راقه الحب فنزل بما حمل فارتهن وربح ، فيسلم تعرقل جناحه وينتظر الذبح ، فلا الحبة حصلت ، ولا الرسالة وصلت .

قطاة غرها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فلا فى الليل نالت ما تمنت ولا فى الصبح كان لها سراح

لو صابرتم مشقة الطريق لانتهى السفر فتوطنتم مستريحين فى جنات عدن ، ويا مهملى النظر فى العواقب أسلفوا فى وقت الرخص ، فما يؤمن تغير الأسعار . لا ترم بسهام النظر فإنها والله فيك تقع ، رب راع مقلة أهملها فأغير على السرح .

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فعلت فى قلب ناظرها فعل السهام بلا قوس لا وتر

غيره :

وأرى السهام نام من يرمى بها فعلام سهم اللحظ يصمى من رمى

اعرف قدر لطفه بل وحفظه لك . إنما نهاك عن المعاصى حماية لك وصيانة لك ، لا بخلا منه عليك ، وإنما أمرك بالطاعة رحمة وإحسانا ، ولا حاجة منه إليك ، لما عرفته بالعقل حرم ما يزيله وهو الخمر ؛ صيانة لبيت المعرفة ، يا متناولا للمسكر لا تفعل ، يكفيك سكر جهلك فلا تجمع بين سكرين . سلعة ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ ﴾ [طه : ٨٢] لا تبذل إلا

بثمن﴿ لِّمَن تَابَ﴾ [طه:٨٢] لمن تاب يا خارجا من سبيله وأمن عن سكه وعمل صالحا . من دار ضرب ثم اهتدى، إن لم تقدر على الجد فى العمل فقف على باب الطلب . تعرض لنفحة من نفحات الرب ، ففى لحظة أفلح السحرة .

لا تجزعن من كل خطب عرى ولا ترى الأعداء ما يشمت

واصبر فبالصبر تنال المنى إذا لقيتم فئة فاثبتوا

ثمن المعالى الجد ، والفتور داء أمر من السلوة . أفى عينيك آيات وآثار ، إذا ما برد القلب فما تسخنه النار . الوجود بحر ، والعلماء جواهره ،والزهاد عنبره ،والتجار حيتانه، والأشرار تماسيحه ، والجهال على ظهره كالزبد . لو كشفت لك الدنيا ما تحت نقابها لرأيت المعشوقة عجوزا وما ترضى إلا بقتل عشاقها ، وكم تدللت عليهم بالنشوز . أذاقتهم برد كانون الأمانى ، وإذا هم فى وسط تموز . تطلب مشاركة الغانمين ، وما شهدت الحرب . تحل الغنيمة لمن شهد الوقعة . البلايا تظهر جواهر الرجال ، وما أسرع ما يفتضح المدعى.

تنام عيناك وتشكو الهوى لو كنت صبا لم تكن هكذا

يا مؤثرا ما يفنى على ما يبقى ، هذا رأى هواك ، فهلا استشرت العقل لتعلم أنصحهما لك . لا تحقرن يسير المعصية ، كالعشب الضعيف يفتل منه حبال تجر السفن . أو ما نفذت فى سد سبأ حيلة جرذ . العمر ثوب غير مكفوف ، وكل نفس خيط يسل منه . أنت أجير وعليك عمل ، فأخر ثياب الراحة إلى انقضاء العمل . كم غرقت سفينة فى بحر شوق ، ساروا وما يسألون ما فعل الفجر ، ولا كيف مالت الشهب . عودهم هجرهم ، مطالبة الراحات أن يظفروا بما طلبوا . الشجاع يلبس القلب على الدرع،والجبان يلبس الدرع على القلب . أعظم البلايا تردد الركب إلى بلد الحبيب يودعون الدمن .

ومعال لو ادعاها سواهم لزمته جناية السراق

نالوا السماء وحطوا من نفوسهم إن الكرام إذا انحطوا فقد صعدوا

لو صدق عزمك قذفتك ديار الكسل إلى بيداء الطلب . الناقد يخاف دخول المبهرج عليه واختلاطه بماله ، والبهرج آمنة . هذا الصديق يمسك بلسانه ويقول : هذا أوردنى الموارد ، وعمر يناشد حذيفة : هل أنا منهم ، والمخلط على بساط الأمن . إذا جن الليل وقع الحرب بين النوم والسهر ، فكان الشوق والخوف فى مقدمة عسكر اليقظة ، وصار الكسل والتوانى فى كثيبة الغفلة ، فإذا حمل الغريم حملة صادقة هزم جنود الفتور والنوم فحصل الظفر والغنيمة ، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان ، وما عند النائمين خبر.

قام المتهجدون على أقدام الجد تحت ستر الدجى ، يبكون على زمن ضاع فى غير الوصال ، ما زالت مطايا السهر تذرع بيداء الدجى ، وعيون آمالها لا ترى إلا المنزل وحادى العزم يقول:

يا رفقة الليل طاب السير فاغتنموا المسرى فمن نام طول الليل لم يصل

إلى أن هب نسيم السحر ، فقام الصادح يبغى ظلام الليل ، فلما هم بالرحيل تشبث القوم بأذياله يبكون على فراق المحبوب ، فلما طلع الفجر حدى حاديهم عند الصباح : يحمد القوم السرى. يا من يستعظم أحوال القوم تنقل فى المراقى تصل . من جمع بين العلم بالسنة ومتابعتها انتحى له المعانى البديعة ، فهى تنادى على رؤوس الأشهاد : ولدت من نكاح لا من سفاح . ومن قرن بين البدعة والهوى انتحى له ضروب الهذيان ، فهى تنادى على رؤوس الأشهاد:أيها الفطن لا تغتر إذا فتحت الوردة عينها فرأت الشوك حولها، فلتصبر على مجاورته قليلا ، فوحدها تقصد وتقبل وتشم . إذا تكلم من يريد الدنيا بكلامه فإنه كلما حفر فى قليب قلبه ، وأمعن فى الاستنباط انهار عليه تراب الطمع فطمه . إذا رأيت سربال الدنيا قد تقلص عنك فاعلم أنه لطف بك ؛ لأن المنعم لم يقبضه بخلا أن يتمزق ، ولكن رفقا بالساعى أن يتعثر . فتش على القلب الضائع قبل الشروع ، فحضور القلب أول منزل من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة ، فكان أول قرى ضيف اليقظة كشف الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع فى دخول مكة من لا يخرج إلى البادية بعد . إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف : ٣١] استغرقت إحساس الناظرات فقطعن أيديهن وما شعرن ،فكيف بالحال يوم المزيد . لو أحببت المعبود لحضر قلبك فى عبادته . قيل لعامر بن عبد القيس : أما تسهو فى صلاتك ؟ قال : أو حديث أحب إلىّ من القرآن حتى أشتغل به . وكان مسلم ابن يسار لا يلتفت فى صلاته حتى انهدمت ناحية من نواحى المسجد فزع لها أهل السوق ، فما التفت وكان إذا دخل منزله سكت أهل بيته ، فإذا قام يصلى تكلموا وضحكوا علما منهم بالغيبة . وقيل لبعضهم : إنا لنوسوس فى صلاتنا . قال : بأى شىء ، بالجنة ، أو الحور العين ، والقيامة ؟ قالوا : لا بل بالدنيا . فقال : لأن تختلف فىّ الأسنة أحب إلىّ من ذلك ، تقف فى صلاتك بجسدك ، وقد وجهت وجهك إلى القبلة ، ووجهت قلبك إلى قطر آخر . ويحك ،ما تصلح هذه الصلاة مهرا للجنة ، فكيف تصلح ثمنا للمحبة . رأت فأرة جملا فأعجبها ، فجرت خطامه فتبعها ، فلما وصلت إلى باب بيتها وقف فنادى بلسان الحال : إما أن تتخذى دارا تليق بمحبوبك أو محبوبا يليق بدارك . وهكذا أنت إما

أن تصلى صلاة تليق بمعبودك ، وإما أن تتخذ معبودا يليق بصلاتك . تعاهد قلبك ، فإن رأيت الهوى قد أمال أحد الحملين فاجعل فى الجانب الآخر ذكر الجنة والنار ليعتدل الحمل، فإن غلبك الهوى فاستعنت بصاحب القلب يعينك على الحمل ، فإن تأخرت الإجابة فابعث رائد الانكسار خلفها ، تجده عند المنكسرة قلوبهم . اللطف مع الضعف أكثر فتضاعف ما أمكنك . لما كانت الدجاجة لا تحنو على الولد أخرج كاسيا ، ولما كانت النملة ضعيف البصر أعينت بقوة الشم ، فهى تجد ريح المطعوم من البعد . ولما كانت الخلد عمياء ألهمت وقت الحلجة إلى القوت أن تفتح فاها،فيبعث إليها الذباب فيسقط فيه فتتناول منه حاجتها . الأطيار تترنم طول النهار فقيل ، للضفدع :مالك لا تنطقين ؟ فقالت : مع صوت المزمار يستبشع صوتى ،ولكن الليل أجمل بى . لا تنس العناية بالسحرة جاؤوا يحاربونه ويحاربون رسله ، وخلع الصلح قد فصلت ، وتيجان الرضى قد وضعت ، وشراب الوصال مروق ، فمدوا أيديهم إلى ما اعتصروا من خمر الهوى ، فإذا بها قد انقلبت خلا ، فأفطروا عليه فسكروا بشراب المحبة ، فلما عربدت عليهم المحبة صلبوا فى جذوع النخل . واعجبا لعزمات ما ثناها لأقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ، سجدوا له سجدة واحدة فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة ، فغلبهم الوجد وتمكن منهم الشوق ، فقالوا: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ [طه : ٧٢] .

تمر الصبا صبحا بساكن ذى الغضا ... ويصدع قلبى أن يهب هبوبها

قريبة عهد بالحبيب وإنما ... هوى كل نفس أين حل حبيبها

قطعت نياق جدهم بادية الليل ولم تجد مس التعب ، فالطريق إلى المحبوب لا تطول .

بعيد على كسلان أو ذى ملالة ... وأما على المشتاق فهو قريب

يا حاضرين معنا بنية النزهة لستم معنا ، عودوا إلى أوكار الكسل،فالحرب طعن وضرب . ويا مودعين ارجعوا فقد عبرنا العذيب ، وعن قريب تأتيكم أخبارنا بعد قليل ، ويا أيها الحادى ، عرس بالخيف من منى تعلمك الدموع كيف ترمى حصا الجمار . ضيف المحبة ما له قرى إلا المهج. إذا رأيت محبا.ولم تدر لمن وضع يدك على نبضه وسم له من تطبه به ، فإن النبض ينزعج عند ذكره . ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الأنفال:٢] . حر الخوف صيف الذوبان ،وبرودة الرجاء شتاء العطلة ،ومن لطف به فزمانه كله فصل الربيع .

عين تسر إذا رأتك وأختها ... تبكى لطول تباعد وفراق

فاحفظ لواحدة دوام سرورها ... وعد التى أبكيتها بتلاق

إذا رزقت يقظة فصنها فى بيت عزلة ، فإن أيدى المعاشرة نهابة ، واحذر معاشرة البطالين ، فإن الطبع لص . لا تصادقن فاسقا ولا تثق إليه ، فإن من خان أول منعم عليه لا يفى لك . يا فرح التوبة ، لازم ذكر الخلوة ، فإن هر الهوى صيود .إياك والتقريب من طرف الوكر والخروج من بيت العزلة حتى تتكامل نبات الخوافى ، وإلا كنت رزق الصائد . الأنس بالخلوة دبق ، أول ما يعلق جناح الطير ، والمخالطة توجب التخليط ، وأيسرها تشتيت الهمة وضعف العزيمة .

أقل ما فى سقوط الذئب فى غنم إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنم

إن لم تكن من جملة المستحقين للميراث ،فكن من رفقة: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى﴾ [النساء : ٨] .ويحك لا تحقر نفسك ،فالتائب حبيب ،والمنكسر صحيح . إقرارك بالإفلاس عين الغنى. تنكيس رأسك بالندم هو الرفعة . اعترافك بالخطأ نفس الإصابة . عرضت سلعة العبودية فى سوق البيع فبذلت الملائكة نقد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة:٣] فقال آدم :ما عندى إلا فلوس الإفلاس ،نقشها : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الاعراف : ٢٣] فقيل: هذا الذى ينفق على خزانة الخاص. أنين المذنبين أحب إلينا من زجل المسبحين . إن كان يأجوج الطبع ومأجوج الهوى قد عاثوا فى أرض القلوب فأفسدوا فيها،فأعينوا الملك بقوة ، يجعل بينكم وبينهم ردما .اجمعوا له من العزائم ما يشابه زبر الحديد ، ثم تفكروا فيما أسلفتم ليثور صعد الأسف فلا يحتاج إلى أن يقول لكم : انفخوا . شدوا بنيان العزم بهجر المألوفات والعوائد ،وقد استحكم البناء ، فحينئذ أفرغوا عليه : قطر الصبر.وهكذا بنى الأولياء قبلكم فجاء العدو ،﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف]. ضاقت أيام الموسم، فأسرعوا بالإبل . لا تفتكم الوقفة إذا لم تخلص فلا تتعب . لا تحد ومالك بعير. لا تمد القوس وما لها وتر . كم بذل نفسه مراء ليمدحه الخلق فذهبت نفسه ، فانقلب المدح ذما . ولو بذلها لله لبقيت ما بقى الدهر . عمل المرائى بصلة كلها قشوره المرائى يحشو جراب الزوادة رملا يثقله فى الطريق وما ينفعه . ريح الرياء جيفة تجافاها مشام القلوب . لما أخذ دود القز ينسج أقبلت العنكبوت تشبهه ، وقالت : لك نسج ولى نسج ، فقالت دودة القز : ولكن نسجى أردية الملوك ، ونسجك شبكة الذباب ، وعند مس الحاجة يتبين الفرق .

إذا اشتبكت دموع فى خدود تبين من بكا ممن تباكا

شجرة الصنوبر تثمر فى ثلاثين سنة ،وشجرة الدباء تصعد فى أسبوعين ،فتقول للصنوبرة : إن الطريق التى قطعتها فى ثلاثين سنة قطعتها فى أسبوعين ، ويقال: لى شجرة ولك شجرة . فقالت لها الصنوبرة : مهلا حتى تهب رياح الخريف ،فإن ثبت لها تم

فخرك . كان التصوف والفقر فى مواطن القلوب ، فصار فى ظواهر الثياب . كان خرقة فصار حرفة . غير ذيك أيها المرائى ، فإنه يصيح بك : خذونى . السيف والدرع لتزيين هيئتك ، فضيحة البهرج تبين عند المحك . لو أبصرت طلائع الصديقين فى أوائل الركب ، أو سمعت استغاثة المحبين فى وسط الركب ، أو شاهدت ساقة المستغفرين فى آخر الركب ، لعلمت أنك قد انقطعت تحت شجر أمّ غيلان . واحسرتا لمنقطع دون الركب يعد المنازل .

أعد الليالى ليــلة بعــد ليــلة وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا

وقد يجمع الله الشتيتين بعدمـا يظـنان كـل الظن أن لا تلاقيا

إلام الرواح فى الهوى والتفليس ، وحتام السعى فى صحبة إبليس وكم بهرجة فى العمل وتدليس . أين أقرانك ؟ هل تسمع لهم من حسيس . أعلمت أنهم اشتد ندمهم وحسرتهم على إيثار الخسيس . تالله لقد ودوا أن لو كانوا طلقوا الدنيا قبل المسيس .

عين المنية تغضى غير مطرقة وطرف مطلوبها مذ كان وسنان

جهلا تمكن منه حين مولده فالنطق صاح ولب المرء سكران

لا تنفع الرياضة إلا فى نجيب . لو سقى الحنظل بماء السكر لم يخرج إلا مرًا ، شجر الأثل والصفصاف والحور ونحوها ، ولو دام الماء فى عروقها لا تثمر أبدا . سحاب الهوى قد طبق بيداء الأكوان ، وأمطر مشارق الأرض ومغاربها ، ولكن قيعان أرض قلبك قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، ومع هذا فلا تيأس ، فقد يستحيل الخمر خلا ، ولكن إنما ذلك لطيب العنصر . خلا الفكر فى القلب فى بيت التلاوة ، فجرى ذكر الحبيب وأوصافه ، فنهض الشوق على قدم السعى ، يا من لم يشاهد جمال يوسف لم يعرف ما الذى آلم قلب يعقوب .

من لم يبت والحب حشو فؤاده لم يدر كيف تفتت الأكباد

يا من هبت على قلبه جنوب المجانبة ، فتكاثفت عليه غيوم الغفلة ، فأظلم أفق المعرفة . لا تيأس فالشمس تحت الغيم . لو تصاعد منك نفس أسف ، استحالت شمالا فتقطع السحاب ، فبانت الشمس تحته . لما كان رزق الطائر اختلاسا لم يجعل له أسنان ، لأن زمن الانتهاب لا يحتمل المضغ ، وجعل له حوصلة كالمخلاة ينقل إليها ما يستلب ، ثم تنقله إلى القانصة فى زمن الإمكان ، فإن كانت له أفراخ أسهمهم قبل النقل . كلما طالت ساق الحيوان طال عنقه ليمكنه تناول الأطعمة من الأرض . رميت صخرة الهوى على ينبوع الفطنة فاحتبس الماء ، فإن لم تطق رفعها فانقب حولها ، لعل ينابيع الماء تتفجر .

لو بعت لحظة من إقبالك على الله بمقدار عمر نوح في ملك قارون،لكنت مغبونا فى العقد. عشاق الدنيا بين مقتول ومأسور﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[الاحزاب:٢٣] . يا طالبى العلم قد كتبتم ودرستم ، فلو طلبكم العلم فى بيت العمل فلستم ،وإن ناقشكم على الإخلاص أفلستم. شجرة الإخلاص أصلها ثابت لا يضرها زعازع: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾[القصص] .وأما شجرة الدباء فإنها تجتث عند نسمة «من كان يعبد شيئا فليتبعه » [1] .رياء المرائين صير مسجد الضرار مزبلة ،وخربه ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة : ١٠٨] وإخلاص المخلصين رفع قدر التفث « رب أشعث أغبر » [2] قلب من ترائيه بيد من أعرضت عنه يصرفه عنك إلى غيرك فلا على ثواب المخلصين حصلت ،ولا إلى ما قصدته بالرياء وصلت ،وفات الأجر والمدح ، فلا هذا ولا هذا لا تنقش على الدرهم الزائف اسم الملك، فإنه لا يدخل الخزانة إلا بعد النقد .المخلص يتبهرج على الخلق بستر حاله وببهرجته يصح له النقد .والمرائى يتبرطل على باب الملك ، يوهم أنه من الخواص وهو غريب ، فسله عن أسرار الملك يفتضح ، فإن خفى عليك فانظر حاله مع خاصة الملك ، يا من لم يصبر عن الهوى صبر يوسف يتعين عليه بكاء يعقوب .فإن لم يطق فذل أخوته يوم ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف : ٨٨] إذا طاب لبث الطين على حافات الأنهار تكامل ريه ،فإذا نضب عنه الماء استلبت الشمس ما فيه من الرطوبة فيشتد شوقه إلى الماء . فلو وضعت منه قطعة على لسانك لأمسكه وعلق به شوقا إلى الورد . فيا من نضب ماء معاملته ، هل أحسست بالعطش .

مداراة الضعفاء باللطف ، فإذا قووا شدد عليهم . مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر . كان الإسلام فى بدايته كالنطفة ، فاقتنع بكلمة التوحيد ، فلما نفخ فيه الروح احتاج إلى الغذاء ففرضت الصلاة ، فلما تحرك وجبت الهجرة ، فلما اشتد وجبت الزكاة ، فلما قربت الولادة لزم الحج ، فلما ظهر طفلا حبى بلطف ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] فلما خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ [الزمر : ٥٣] فلما ترعرع قال المؤدب : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] فلما بلغ أشده واستوى جاء ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] .المتعبدون بالليل يقربون إلى نوق الأبدان خيط الرقاد ، فإذا تناولت سد الفاقة رفعت رؤوسها ، فإذا الدليل على الجادة فتأخذ فى السير . من النجوم الجوارى مؤذن ومنها مقيم ، فأرباب العزائم يؤذن فى محلتهم بليل ،ويقاوم لهم أول الوقت ،ومن دونهم يصلون فى أول الوقت ،وأهل الفتور فى آخره . إذا هجمت جنود الرقاد على العيون ، صاح حارس اليقظة بالمتعبدين: الصلاة خير من النوم ،وهتف

(١) السنة لابن أبى عاصم (٤٧٥) ،وصححه الألبانى .

(٢) الطبرانى فى الأوسط (٨٦١)،وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٦٧) فى الزهد ،باب : فيمن لا يؤبه له : « فيه عبد الله بن موسى التيمى ،وقد وثق ، بقية رجاله الصحيح ».

رقيب المعاتبة كذب من ادعى محبتى حتى إذا جنه الليل نام عنى ، فيصيح المشتاق :

سلوا الليل عنى مذ تناءت دياركم هل اكتحلت بالغمض لى فيه أجفان

ثم تمر بالمتهجدين سيارة النجوم فيبعثون مع كل فج رسالة ، فتسلم أخباره إلى الركب السحر ، فتهب لمجيئها رياح الأسحار ، فيقول المنتظر : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٩٤]، سبحان من أنعم على الموجودات بإيجادها من غير طلب ، فلما وجدت بسطت أكف السؤال لطلب تكميلها . فالأجنة فى بطون الأمهات تطلب تكميل الخلق ، والبذر تحت التراب يطلب قوته من الرى . ومخ الثمار ينتظر من فضله كمال نضجه ، ومراكب البحار ترجو تحريكها بالرياح . وأصحاب البضائع ينتظرون وجود الأرباح عليهم . وطلاب العلم يسألون فتح منغلق الفهم .وأهل المجاهدة يرومون المعاونة على الطبع . والمظلوم يترقب طلوع فجر النصر . والمريض يتململ بين يديه طلبا للطفه . والمكروب ينتظر كشف ما به . والخائف يترقب بريد الأمن والأبدان المتمزقة فى اللحود تنتظر جمع الشمل بعد الشتات . وعرائس الجنان يسألن سلامة بعوالتهن وتعجيل اللقاء . فإذا قام الخلق من أطباق التراب بأنعاش البعث يسألنى نكس صاحب الزلل رأس الندم طلبا للعفو . ومد العابد يد التقاضى بالمسلم فيه عند حلول الأجل ، وحدق الزاهد إلى جزاء الصبر . وأشرف المحب على أطلال الشوق إلى الحبيب . وصاح العارف بلسان الوجد إذا لم يبق وقت للصمت :

لى عندكم ديـن فواعجبا الديـن لـى وفـؤادى الرهـن

من شاء باهلنى باهلته بهم وبعد عند ورود الحوض نستبق

غيره :

عدمـت دوائـى بالعـراق وربمـا وجدت بنجد لى طبيبا مداويا

ويا جبـل الريـان إن تعـر منهـم فإنى سأكسوك الدمـوع الجواريا

ومن حذرى لا أسأل الركـب عنهم وإغلاق وجدى باقيات كما هيا

ومن يسأل الركبان عن كـل غائـب فلا بد أن يلقى بشيـرا وناعيا[1]

وأيضا

من نبت جسمه على الحرام فمكاسبه كبريت به يوقد عليه . الحجر المغصوب فى البناء أساس الخراب . أتراهم نسوا طىّ الليالى لمن تقدمهم﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾[سبا: ٤٥] ،

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٢٤ ـ ٢٣٩) .

فما هذا الاغترار﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ [الرعد:٦] ، ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِم ﴾[يونس:١٠٢] ،من لهم إذا طلبوا العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون سبحان الله،كم بكت فى تنعم الظالم عين أرملة،واحترقت كبد يتيم وجرت دمعة مسكين،﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ (٤٦) ﴾ [المرسلات]، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾ [ص] ،ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم .وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه .لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك . ويحك نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت .قوسه قلبه المقروح ، ووتره سواد الليل ، وأستاذه صاحب «لأنصرنك ولو بعد حين» ،وقد رأيت ولكن لست تعتبر ، احذر عداوة من ينام وطرفه باك يقلب وجهه فى السماء .يرمى سهامًا ما لها غرض سوى الأحشاء منك ، فربما ولعلها إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحسن تناولها . ما تساوى لذة سنة غم ساعة فكيف والأمر بالعكس . كم فى يم الغرور من تمساح فاحذر يا غائص . ستعلم أيها الغريم قصتك عند تعلق الغرماء بك .

إذا التقى كل ذى دين وماطله ستعلم ليلى أى دين تداينت

من لم يتتبع بمنقاش العدل شوك الظلم من أيدى التصرف أثر ما لا يؤمن تعديه إلى القلب . يا أرباب الدول ، لا تعربدوا فى سكر القدرة فصاحب الشرطة بالمرصاد . سليمان الحكم قد حبس عاصف العقوبة فى حصن﴿ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾ [مريم] وأجرى رحا الرخا ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ ﴾[النساء :١٦٥] فلو هبت سموم الجزاء من مهب ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴾ [الأنبياء: ٤٦] . قلعت سكرى ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] فإذا طوفان التلف ينادى فيهم ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [هود : ٤٣]. فالحذر أن تقول نفس ﴿ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦]. وأنت أيها المظلوم فتذكر من أين أثبت،فإنك لا تلقى كدرا إلا من طريق جناية﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١]. ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠]. كان لبان يشوب الماء باللبن فجاء سيل فذهب بالغنم ، فجعل يبكى فهتف به هاتف :اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلا ، ولسان الجزاء يناديه : يداك أوقدتا ، وفوك نفخ . اذكر غفلتك عن الأمر والأمر وقت الكسب . ولا تنس اطراح التقوى عند معاملة الخلق ، فإذا انقض غاصب فسمعت صوت سوطه يضرب عقد المكسب جزاء لخيانته العقود فلا تستعظم ذاك ، فأنت الجانى ،والبادى أظلم [١] .

(١) بدائع الفوائد (٣ / ٢٤٢ ـ ٢٤٣) .